هلاوس

مجموعة قصصية

اسم الكتاب: هلاوس
تأليف: أحمد يسري الصباغ
تصحيح لغوى: عزة أبو الأنوار
رقم الإيداع: 2014/21118
الترقيم الدولي: 978-977-6376-72-4

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحى الجيزة – الهرم
محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشـر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

هلدوس

أحمد يسري

مجموعة قصصية

ضوء في آخر النفق

لو سيل أهل الهوى من بعد موتهم:
هل فرجت عنكم مذ متم الكرب؟
لقال صادقهم أن قد بلى جسدي
لكن نار الهوى في القلب تلتهب

قيس بن الملوح

أرى الضوء في آخر النفق.. تلك الساعة من الليل التي يزول فيها ضوء القمر.. لا شيء سوى ضوء النجوم وضوء بعيد من آخر النفق.. «صه!» أقولها للكون من حولي.. أليس هذا صوتها يناديني؟! ألا تسمعها أيها الضوء؟! أهذا أنتِ يا غادة، أهو صوتك العذب الحنون؟! رباه! كم أحب صوتك! كم أعشق نغماته! علوّه وانخفاضه.. حركة شفتيكِ وهي تنتج ذاك الخليط من السحر، سحر يخلب الكيان، يخدّر الأحاسيس.. حياة كاملة في كل حرف.. أهو صوتك العذب؟! أهو اسمي تنطقينه من جديد؟! هل سمعت أيها الضوء؟ هل رأيت؟ أهي هي أم أن حواسي تخدعني؟ هل رأيت تلك الابتسامة الخاطفة، تلك الدفعة من النور تشع من وجهها لحظات تجعلك تشتاق إلى المزيد، تدرك أنها قد أنهت ابتسامتها لتظل في نهم، لترى ذاك النور مرة أخرى.

كم أحببتك! كم أحببت تلك النظرة الخجلى في عينيك عندما قلتها لك للمرة الأولى في حياتي! كم أحببت ابتسامتك الخجلى وقتها! تلك النظرة في عينيك التي قالت الكثير.. كم أحببتك! قد ابتسمت مرة أخرى أيها الضوء الحزين.. تمد يدها.. أعود إلى بيتي كل مرة في شوق أن أراها، أن ألتهم كلماتها اتلهامًا، أن أرى الشوق يتبدد في عينيها.. أعود كل مرة من سفري البعيد حاملاً همومي لتبددها بلمسة يد بسيطة.. أعود من سفري متعبًا منهكًا فأرى عينيها، فيعود نشاطي ومعه حياتي من جديد.. أستمد من نظراتها طاقة وجودي.

أعود من سفري لأفاجئها ليلة رأس السنة، فأجدها في أحضان ذاك الغريب.. أقف لوهلة.. أتمنى أن يكون حلمًا، لا.. بل كابوسًا.. أحاول أن أستيقظ.. تداري وجهها مني.. ألجمتني المفاجأة.. كم أحببتك! لِمَ تسلبيني كل ما أعطيتني فجأة؟! دمعات تهرول خارجة من عينيّ تغرق المشهد الأثيم.. تشعل نار غضبي.. وحبي.. ذلك السكين.. أراه يهرب..

أأنت من سلبت مني الحياة؟ غضبي يعمي عينيّ.. يداي وكأنما نبتت لهما حياتهما الخاصة.. تتحركان.. تصرعانه.. تنهالا عليه بالضربات.. تلتفّان حول عنقه.. تسلبانه الحياة التي يومًا سلبها مني.. تجلس غادتي بلا حراك، بلا صوت.. تنظر وتفلت منها دمعة.. تحاول الكلام. «أحبك»، أقولها. «لِمَ...؟» أسأل دون أن أكمل السؤال.. نظرة منكسرة إلى الأرض تجيب بها.. يداي تستلّ السكين.. «لم؟ لم؟ لم؟» أسألها مئة مرة فلا ترد.. «دافعي عن نفسك، قولي أنه أكرَهَكِ، أنه هددك.. قولي إنك لا تحبينه».. دماء تتراقص في الحجرة.. طعنات طعنات، ودموعي تنزل تغسل جروحها.. يلتمع نصل السكين على وجهي.. «تكلمي». أنهرها في غضب.. «أحبك».. يقع السكين من يدي.. رباه ماذا فعلت يداي.. ماذا أفعل الآن؟

ترى أيها الضوء لم أجد غيرك رفيق.. اقترب مني أيها الضوء.. اقترب وأنر ما حولي.. اقترب ودعني أرى وجهها في السماء.. إنها تنادي.. اقترب واغسل الدماء عني بضوئك النقي.. سأقترب منك أنا.. سأفرد ذراعيّ وآخذك في أحضاني.. يلتمع ضوؤك على السكين الملطّخة بالدماء التي تجمدت عليها يدي.. أسمعك تطلق صافرتك.. صوتك يغطي على كل الموجودات.. صافرة حزينة طويلة.. تقترب أيها الضوء وتملأ عينيّ.. أراها تأتي.. تنادي من جديد.. اقترب مني ودعها تأخذني بين أحضانها.. أفرد ذراعيّ.. «أنا هنا».. تطلق صافرتك من جديد.. رباه! كم أحببتك!

الكابوس

عندما يلازمك الأرق فأنت لا تُحرم من النوم فقط، بل من الاستيقاظ أيضًا.

fight club

أفيق مفزوعًا.. أفتح عينيّ دفعة واحدة.. أشهق جرعة عظيمة من الهواء أملأ بها رئتيّ.. أتوقف لثوانٍ قبل أن أزفرها.. ألهث بلا توقف كأنما كنت أجري هاربًا من قطيع من الكلاب الضالة (أسوأ مخاوفي في الحياة). أتفقّد ما حولي في وسط لهاثي، عيناي تجولان في كل الموجودات بسرعة.

- لا بأس.

أهمس بها لنفسي.. تهدأ أنفاسي بعد أن وجدتني ما زلت على فراشي في غرفة نومي.. زفرة قوية أنهي بها كل اضطرابي.. أفرك عينيّ المجهدتين بشدة وأنظر إلى علبة الأقراص المفتوحة بجانب الفراش والغضب يتصاعد بداخلي.. هذا الصيدلي النصّاب قال لي إنني سأنام كالأطفال لعشر ساعات على الأقل وإن هذا النوع مستورد، دومًا ينهون كلامهم بأن هذا النوع مستورد، حتى تظن من كثرة ما قيلت أن كل ما يبيعونه مستورد.. لم أنم أكثر من ربع الساعة هذه المرة.

- سأقتل هذا الصيدلي النصاب.

صرخت بهذه الجملة بداخلي.. أتابع عقارب الساعة المعلقة أمامي وهي تتحرك وأصغي لصوتها الرتيب.. عقرب الثواني يتقافز قفزات شيطانية بين الأرقام.. يتعالى صوت قفزاته في أذني ليملأ المكان حولي.. تيك.. توك.. هذه خمس ثوانٍ ضاعت من حياتي في عمل لا شيء.. دقيقة.. دقيقتان.. خمس دقائق.. يتملكني الملل وأعلم يقينًا أني لن أنام في هذه الليلة.

- اللعنة!

أقولها بصوت عالٍ وأقوم من مرقدي.. أفتح باب غرفتي لأراهم جالسين يشاهدون التلفاز، زوجتي وطفلتي الصغيرة.. تنظر زوجتي إلى وجهي المرهق وعينيّ الحمراوين وتقول:

- هل استيقظت؟

أنظر إليها وأنا أحاول أن أرد عليها ردًا لا ينتهي بأن أهشّم رأسها مكافأة على هذا السؤال العبقري؛ نظرت إليها مليًّا ولم أجد أفضل من أن أهزّ كتفيّ وأجلس محاولاً الهدوء.

- ألم يفلح المنوم الذي ابتعته اليوم؟

أنظر إليها في حيرة؛ كيف أفلح وأنا جالس أمامك منكوش الشعر منتفخ العينين ولم أنم سوى ربع الساعة؟! أكظم غيظي وأتكلم من بين أسناني.

- ماذا يبدو لك؟ هذا الصيدلي النصاب يبيع لي الهواء للمرة الخامسة على التوالي.. سأريه غدًا.

- ربما ليس العيب من عند الصيدلي.

- ماذا تعنين؟

قلتها بصوت بدأ في العلو.

- لا شيء.

قالتها لتنهي الكلام وتقطع عليّ فرصة تنفيس غضبي فوق رأسها.

تصمت لبعض الوقت، تمثّل الانشغال بمشاهدة التلفاز الذي يعرض مسلسلاً من تلك المسلسلات التركي التي أكرهها، تقول بصوت هادئ:

- اسمع كلامي، لا بد أن نذهب إلى شيخ.. ما يحدث لك ليس سوى عمل سفلي.

كانت هذه القشة التي قصمت ظهر البعير، لم تستطع أعصابي التالفة سلفًا تحمّل المزيد، فانفجرت في وجهها.

- أي عمل سفلي؟! كفى كلامًا عن العفاريت والجن والحسد.. اخرجي من عالم الأساطير الذي تعيشين فيه طوال الوقت يا امرأة.

نظرت إليّ في اندهاش تحاول الكلام، ولكني لم أعطها الفرصة فأكملت وأنا أوجّه الكلام لجمهور وهمي كأني أشهدهم عليها:

- تنسى الشباك مفتوحًا وتنام لتصاب بنزلة برد فتجدها تأتيك في الصباح قائلة لا بد أنك محسود.. تفتح حقيبتها فتجد دومًا تلك الورقة المثلثة التي يسمونها حجابًا.. تعوز كل الأشياء إلى عالم الجن والعفاريت.. امرأة خارج حدود الزمن.. إنه القرن الحادي والعشرون؛ عيشي معنا وأخرجي هذه الأوهام من رأسك.

ألهث في انفعال بعد أن فرغت شحنة الغضب من داخلي، بينما تحاول هي الكلام بصوت مبحوح:

- كل ما أريده هو أن أساعدك.

- أشكرك! لا أريد مساعدة من أحد.

تداري وجهها؛ لا شك أني جرحتها، ولكن لا أستطيع السيطرة على أعصابي.. أحب طيبة قلبها لكن يقتلني خواء عقلها.. تحاول ابنتي الصغيرة -التي لم تتعلم الكلام بعد- أن تشد انتباهي.. تقف أمامي وتحاول الإمساك بيدي.. أشيح بوجهي وأسحب يدي من بين يديها متناهية الصغر، فالسخط الذي يعتمل بداخلي الآن أكبر حتى من حب الأب لابنته.. تحملها أمها متجهة إلى الداخل قائلة:

- هيا يا حبيبتي نترك بابا لحاله.

تقذفني بنظرة امتزج فيها العطف بالغضب ثم تستطرد:

- بابا أعصابه مضطربة ولا ينام جيدًا.

أراقب خطواتها وهي تتجه إلى غرفة النوم.. جزء مني يصرخ أن قم اعتذر لها، والجزء الآخر يحاول أن يقنعه بصوت غاضب أن ما حدث هو خطؤها وعاقبة جهلها وتمسكها بالخرافات.

نصف ساعة مرت وأنا ما زلت في مكاني لم أغيّر جلستي كالمخمور بلا خمر.. أمسك بالريموت وأتحرك بين القنوات بلا اهتمام حقيقي.. متبلد العقل، مخدر الأحاسيس أجلس وحدي أعاني من الأرق.. عشرة أيام مرّت عليّ وأنا في هذه الحال إلى الآن.. عشرة أيام وذاك الكابوس

يطاردني كلما أغلقت عينيّ.. أبحث بين القنوات وأفكر في صباي عندما كان التلفاز ينهي الإرسال في وقت متأخر من الليل، كنت أعشق مراقبة الحبات الرمادية تتصارع فوق الشاشة.. مجرد إحساسي أن لا أحد هناك على الطرف الآخر كان يُدب الخدر في أطرافي فأنام كما لم أنم من قبل.. لا ينتهي الإرسال أبدًا هذه الأيام.. نحن موجودون من أجلك أربعة وعشرين ساعة، نعيد ما عرضناه بالنهار في الليل ونواصل الليل بالنهار، حتى لا يفوتك شيء، حتى وإن فاتك شيء بمعجزة ما، يمكنك دائمًا الولوج إلى الإنترنت لتشاهده على شاشة حاسبك.. ربما لهذا فقدنا متعة مشاهدة شيء.. ربما لهذا فقدنا متعة الانتظار والالتفاف حول الشاشة في العيد لمشاهدة شيء لم نره من قبل.. قناة تتبعها أخرى وعيناي لا تريان حتى ما يعرض.. تنغلق جفوني للحظات ثم ينفتحان بهدوء.. ينزلق رأسي للوراء بهدوء يتبعه وعيي إلى عالم النوم.. للحظة كنت أشاهد التلفاز بلا اكتراث وفي الأخرى كنت هناك.

وسط الظلام والبرد القارص أقف وحدي.. لا شيء على مدى البصر سوى بيت وحيد متهالك يربض وسط الفضاء، لا إضاءة سوى عامود الإنارة الوحيد البعيد القريب يلقي بإضاءة شيطانية على البيت.. تتحرك قدماي بحذر أتلمس طريقي إلى الضوء.. أستشعر أحدهم يتحرك بخطوات سريعة يأتي إلى ناحيتي.. تلتقط أذناي صوت خطوات أخرى من الجانب الآخر.. تتسارع خطواتي ويدب الرعب في قلبي.. أحاول ألا أتعثّر، فهذا ليس بالوقت المناسب للوقوع أرضًا كالضحايا العاجزين الذين نراهم في الأفلام.. يقترب الضوء، لا أعلم هل أنا الذي اقترب منه أم أنه يتحرك إلى ناحيتي.. تتزايد أصوات الخطوات من حولي ولكني لا أرى أحدًا.. أصل إلى مركز الضوء وأقف أتلفّت حولي في كل الاتجاهات لعلّي أرى أحدًا.. أسمع الأصوات تقترب.. تتزايد ضربات قلبي حتى أشعر به يكاد يخرج من صدري.. أصوات الخطوات تتعالى كأنما ترج

المكان من حولي.. أنظر على الأرض من حولي لعلّي أجد شيئًا أدافع به عن نفسي.. فجأة يعم السكون.. أرفع عينيّ لأرى أجسادًا عديدة كأنما نبتت من الأرض قد شكلوا دائرة أنا مركزها.. يتغير الخوف بداخلي إلى حيرة، فكل من حولي لهم نفس ملامحي.. لا أبالغ إذا قلت إن كلهم أنا.. أستجمع قواي وأنجح أخيرًا أن أتكلم.

- ماذا تريدون؟

لا يبدو عليهم ردة فعل، فأصرخ في وجوههم التي تماثلني.

- أجيبوني.. ماذا تريدون؟

ترتفع أياديهم جميعًا في نفس الوقت كأنهم كتلة واحدة، وأصابعهم جميعًا تشير إلى نفس المكان.. أنا.. تتباين ملامحهم لحظتها بين السخط والغضب والازدراء، والكل يحدق فيّ بغلّ شديد.

- أنا لم أفعل شيئًا.

قلتها أدفع عن نفسي ما يتهمونني به، رغم أني لم أعرفه بعد.. ترتفع أياديهم وأعينهم في لحظة واحدة تشير إلى السماء.. أنظر إلى ما ينظرون إليه فأرى السماء تخضّبت بلون الدماء.. أنظر إليهم مرة أخرى في جزَع فأرى النار تشتعل من محاجر أعينهم ويتقدمون جميعًا نحوي.. أحاول الصراخ، فكأنما صوتي انحبس في حلقي.. يتقدمون خطوة أخرى والسماء من فوقهم يزداد احمرارها.. تفور من الغضب.. أصابعهم لا تزال تشير إليّ والنار بدأت في أكل لحم وجوههم.. يقتربون حتى أشعر بحرارة اللهب من حولي و... أستيقظ لاهثًا، أنظر من حولي لأجدني في نفس مكاني أمام التلفاز.. هل نمت حقًا أم أنها هلاوس الأرق؟ في حالتي الآن لا أستطيع حتى التمييز بين الحقيقة والخيال.. اختلط الواقع بالحلم فصنعا مزيجًا كريهًا أحس بمرارته في حلقي.. أزفر من جديد، لماذا لا يتركني هذا الكابوس الكريه لحالي؟ نفس الكابوس بنفس التفاصيل يتكرر كل مرة، كأنما هي رسالة تتكرر حتى أفهمها.. ربما

هـي رؤيـا، ولكـن أليسـت الـرؤى للصالحـين والأوليـاء دون غيرهـم؟! لسـت شـيطانًا ولكنـي لسـت بهـذا الصـلاح والصلـة باللـه حتـى تأتينـي رؤيـا.. ربمـا هـو تحذيـر، ضـوء أصفـر ينـير سـاطعًا في وجهـي، محـذرًا إيـاي مـن غضـب السـماء إذا مـا تماديـت في انحـرافي عـن الطريـق المسـتقيم.. أم هـو مجـرد تنويـه عـما هـو آت لا محالـة؟ ربمـا هـي نفـسي تشـعر بعقـدة ذنـب وتـؤرق مضجعـي بهـذا الكابـوس حتـى أكفّـر عنـه، ولكـن في كل الحـالات، مـا الـذي فعلـت في حيـاتي لأسـتحق هـذا العقـاب؟ أن أحـترق حيًـا! توقفـت لوهلـه مفتشًـا في ذاكـرتي، ولكنـي لم أجـد شـيئًا يسـتحق هـذا القـدر مـن العقـاب.

- لم أقتل أحدًا على ما أتذكر.

قلتهـا لنفـسي عـلى سـبيل الدعابـة ولكنـي لم أبتسـم.. وعيـي المشـوّش خـرج عـليّ بتسـاؤل منطقـي: وهـل يعلـم مـن يسـتحق الحـرق أنـه يسـتحق الحـرق فعـلاً؟ أسـوأ الخُطـاة وأشـدّهم انحرافًـا هـم مـن يسـتصغرون ذنوبهـم.. أسـوأ الخطـاة هـم مـن لا يعلمـون بفداحـة أخطائهـم.. ربمـا فعلـت مـا اسـتصغرته يومًـا، ولكـن لم يكـن كذلـك، وعـاد ليطـاردني في نومي.. ربمـا دمـرت حيـوات آخريـن بأخطـائي وأنـا أتصنّـع الـبراءة وأظـن أني لم أفعـل شـيئًا.. نظـرت إلى حاسـبي في ركـن الحجـرة وقـررت البحـث عـلى الإنترنـت، فلربمـا وجـدت مـا ينهـي حـيرتي أو يرشـدني إلى اتجـاه أتحـرك فيـه قبـل أن أفقـد عقـلي.. أجلـس أمـام الجهـاز بعـين نصـف مغمضـة وأبحـث عـن الاحـتراق في الحلـم.. أتصفـح في النتائـج، لأجـد مقـالاً اقشـعرّ لـه بـدني.. مـاري ريسـير مـن الولايـات المتحـدة الأمريكيـة احترقـت في منزلهـا وأكلـت النـيران جسـدها دون سـبب معـروف، ولم تـأكل النـيران شـيئًا مـن الأثـاث.. جـورج تيرنـر البريطـاني مـات محترقًـا في شـاحنته دون أن تحـترق السـيارة ودون سـبب منطقـي أيضًـا.. مـاري كربنتروهـي ماتـت محترقـة أمـام أولادهـا في قـارب وسـط النهـر ويجـزم الجميـع أن النـار كانـت وكأنهـا تخـرج مـن داخلهـا، ولم تفلـح ميـاه النهـر في إطفائهـا، وغيرهـم كثـيرون.. أليـس هـذا

شبه مطابق لما أراه في حلمي؟ ألم تكن النار تشتعل من داخل أشباهي دون أن تحرق شيئًا من حولهم سواي بالطبع؟

- اهدأ؛ قد يكون كل ذلك كذبة منتشرة على الإنترنت.

أقولها لنفسي ربما دون اقتناع حقيقي.

- سأذهب غدًا إلى أول طبيب نفسي أجده، وليذهب رأى الناس الذي أخافه إلى الجحيم.

أنظر من حولي في عصبية لتقع عيناي على مفاتيح السيارة الملقاة على المنضدة.. أفتح عينيّ وأفركهما بيديّ أحاول أن أضخّ الدماء إليهما علّهما تنشطان.. لا بد أن أستنشق بعض الهواء النقيّ.. أقوم من مكاني بصعوبة وأرتدي ملابسي على عجل.. أنظر إلى نفسي في المرآة، شكلي مزرٍ ولكن لا يهم.. أنظر إلى مفاتيح السيارة في تساؤل، ولمَ لا؟! سأقود بهدوء وربما تنهكني القيادة فأنام بلا كوابيس، واليوم ليلة رأس السنة، فلا بد أن الشوارع مكتظة بالسيارات.. أغلق الباب.. أنزل الدرَج.. أدلف إلى السيارة.. أحكم ملابسي على جسدي.. زئير المحرك الذي انزعج من إيقاظي له في هذا الوقت.. دوران العجلات.. عيناي تحرقاني والبرد شديد، لماذا دائمًا تكون بداية السنة الجديدة باردة بهذا الشكل؟ عجلة القياده تتحرك بين يدي وكل الشوارع تبدو متشابهة إلى حد كبير.. الإرهاق يقتلني ولكني ما زلت أتحرك.. أقرّ الآن أني تائه لا أعلم أين أنا، ولكن لا يقلقني هذا إلى حد كبير، يكفيني أن أخرج رأسي من شباك السيارة لأجد نصف دستة من الأشخاص يصفون لي الطريق.. البيوت تقل من حولي ومعها الإضاءة، وعلى مدى بصري رأيته.. بيت يوحي منظره بالكآبة، وعامود إنارة وحيد يرسل إضاءة واهنة، فلا يحسّن الأمور.. رجفة باردة سرت في أوصالي وقتما رأيت هذا البيت.. علمته من نظرة واحدة، كيف لا أعرفه وأنا أراه ما لا يقل عن ثلاث مرات يوميًا في أحلامي؟!

- هل هو هذا الحلم السخيف من جديد؟ هل أنا نائم أحلم الآن؟

تساءلت بصوت خفيض.. أسأل نفسي هذا السؤال طوال الوقت هذه الأيام.. هل أنا نائم أم مستيقظ؟ نقرص أنفسنا أو نلطم وجوهنا لكي نفرق بين الحلم والواقع.. نظن أن الفرق بين الحلم والحقيقة هو إحساسنا بالألم، ولكن من قال إننا لا نحس بالألم في أحلامنا؟ من منا يستطيع فعلاً التفريق بين الحلم والواقع؟!

- لا لن أهرب هذه المرة.

هكذا صرخت بداخل سيارتي ففي حلمي أهرب دائمًا يغمرني الخوف، ولكن الآن سأجرب المواجهة على سبيل التجديد، كم مرة تأتيك فرصة أن تحلم وأنت تعي أنك تحلم! أنطلق بالسيارة في اتجاه كابوسي.. إعصار من التراب يتكوّن من حول السيارة إثر سرعتي فوق الأرض غير الممهدة.. أتوقف وسط بؤرة الضوء التي صنعها المصباح المعلق فوق رأسي.. أحبس أنفاسي للحظات، أنتظر الهول الذي لم يأتِ هذه المرة.. أزفر مبتسمًا، ربما لا بد أن أنزل من السيارة حتى يبدأ العرض.. أترجّل من السيارة بحذَر متلفتًا حولي في كل الاتجاهات.. قلبي يتواثب في صدري، أسدد النظرات في كل مكان، أحاول أن أكشف الظلام من حولي.. أقف لدقيقة أتشمم الهواء، كل شيء يبدو حقيقيًا أكثر من اللازم، أم هو بالفعل حقيقي؟! من بعيد رأيته يمشي حثيثًا متجهًا إلى ناحيتي.. شبح ابتسامة تلاعب فوق شفتيّ إذ طرأت في بالي فكرة مجنونة.. واحد آخر يظهر من يميني، واثنان آخران أسمع خطواتهم من ورائي.. انتظرت حتى اقترب أولهم ليدخل في دائرة الضوء، نظرت إلى وجهه لأتأكد فكان كما توقعت.. أنا آخر.. لم أنتظر حتى يقترب أكثر من ذلك، إذ جريت نحوه بكل قوتي مطوّحًا بقبضتي لألكمه.. إذا كان ذلك الحلم يقتلني كل مرة فلم لا ألقّنه هذه المرة درسًا، ربما يتركني وشأني.. تشق قبضتي طريقها في الهواء لتضربه في جانب فمه

بـكل مـا أوتيـت مـن قـوة.. يتوقـف للحظـة ويعـاود سـيره مـن جديـد كأنمـا لا يـراني.. أشـدّه مـن ملابسـه وأرميـه عـلى الأرض فيعـاود الوقـوف ليسـير مـن جديـد.. تتكاثـر الأجسـاد مـن حـولي، تـأتي مـن كل صـوب، كلهـم يتجهـون إلى نفـس المـكان.. أجـرّب الأمـر مـع اثنـين آخريـن ولكـن لا يبـدو عليهـم التأثـر عـلى الإطـلاق.. كالمـوتى الأحيـاء يتحركـون، يطبقـون عـليّ مـن كل الجوانـب ولا أجـد مفـرًا سـوى التقهقـر إلى الـوراء، إلى منتصـف دائـرة كونوهـا بأجسـادهم.. أنظـر إليهـم في تحـدٍ إذ يكملـون سـيرهم إلى ناحيتـي.. فجـأة يتوقـف كل شيء، حتـى الهـواء والغبـار المتطايـر سـكن في مكانـه.. وقفـوا أماكنهـم مـن حـولي ينظـرون إلى ناحيتـي كالمنوّمـين مغناطيسـيًا دون حـراك.

- لماذا توقفتم؟

صرخت فيهم:

- لم ينتهِ الحلم بعد.

لا ترمش أعينهم حتى مع كل صراخي.. أتحرك وسطهم كالمجنون.

- هيا أريد أن أنهي هذا الحلم.. أريد الاستيقاظ.

لا رد.

- هيـا ارفعـوا أصابعكـم ناحيتـي في سـخط واحرقـوني مثلـما تفعلـون كل مرة.

كأنمـا انتظـروا هـذه الجملـة، فارتفعـت أيديهـم يشـيرون إلى ناحيتـي دون أن يتغـير هـدوء ملامحهـم.. شـاخصة أعينهـم إلى مـكاني.. أشـعر بحـرارة فجائيـة في راحـة يـدي.. أنظـر إليهـا في فـزع فأجدهـا تشـتعل بالنـيران.. أحـاول إطفاءهـا بيـدي الأخـرى، فأجـد النـار قـد اشـتعلت بهـا هـي الأخرى.. أرى النـار تشـتعل مـن أقدامـي كأنمـا تنبـت مـن داخـل جسـدي.. أنظـر إلى يـديّ في غـير تصديـق.. أحـاول الـكلام أو الـصراخ، ولكـن النـار التـي نبتـت مـن عنقـي أكلـت صـوتي قبـل أن أفكـر في الـصراخ.. تسـاءلت طـوال حيـاتي،

هـل أنـا مسـتيقظ حقًـا أم أن كل مـا أنـا فيـه هـو مجـرد حلـم! كل ذكريـاتي ولحظـاتي، التعيـس منهـا والسـعيد، كل مـا كافحـت وتعبـت مـن أجلـه هـل حـدث فعـلاً.. هـل أصحـو فجـأة فأجـدني مجـرد طفـل في العـاشرة مـن عمـره وكل مـا عشـته كان مجـرد حلـم؟ النـار تنتقـل بـين أعضـائي بـكل حيويـة.. هـل أنـا حقًـا أمـوت؟ ربمـا أنـا الآن نائـم عـلى الكـرسي أمـام التلفـاز وأحلـم نفـس الحلـم مـرة أخـرى.. ربمـا أنـا أحـترق فعـلاً في مـكان آخـر وأحلـم أني أحـترق في هـذا المـكان.. ربمـا سأسـتيقظ الآن، وربمـا لـن تـرى عينـاي النـور مـرة أخـرى.. لا يهـم، كل مـا يهـم هـو ذلـك الخـدر اللذيـذ الـذي يـسري في أوصـالي ويُثقِـل جسـدي.. هـذا الظـلام المخمـليّ الـذي يطبـق عـلى وعيـي مـن كل الجوانـب.. كل مـا يهـم.. أن أنـام.

الآخر

كتب أرنست هيمنجواي ذات مرة، العالم مكان جيد ويستحق المحاربة من أجله.. أنا أتفق معه في الجزء الثاني.

Se7en

لماذا نخاف الدماء؟ لماذا نخافها مع أننا نعلم أن لا حياة لنا من دونها؟ تسري بين أوصالنا تحمل الحياة بين جزيئاتها.. تبعث الدفء في عروقنا.. تغذي القلوب والعقول.. تغذي الحب والكُره، القوة والضعف، الشجاعة والخوف.. ربما نخافها لأنها تذكرنا بالموت الذي نتناساه.. كيف يتناسى الناس الحقيقة الوحيدة المطلقة في دنيانا المربكة المتفككة؟ كيف ينسى الناس أن لا حياة بلا موت ولولا الموت ما استمتعنا بالحياة؟!

أراقب السائل الأحمر ينسال على ثنيات أصابعي.. يتساقط إلى الأرض.. يحمل ذكرياتي وفرحي وحزني.. يحملني، كل قطرة منه تحمل ذاتي.. تحمل وجودي نفسه.. أراقب انعكاسي الشاحب في المرآة أمامي.. أسمعه يصرخ بداخلي.. ينزف.. يحاول التحرر بلا فائدة.. يتخبط داخل ثنايا عقلي.. أتبسّم بشماتة.. أنظر إلى انعكاسي في تحدٍ.. بينما يتسع ذلك الثقب الأسود أمام عيني، منذرًا بالنهايه القريبة.

* * *

هل تريد أن تمتع نفسك الليلة يا باشمهندس؟

* * *

أتذكر أول يوم علمت بوجوده، كان منذ ثلاثة أسابيع بالضبط.. لا أعلم يومها لمَ استيقظت فزعًا من نومي، كأنما يد قوية باردة اعتصرت قلبي.. انتبهت حواسي كلها وقمت جالسًا في فراشي.. أغمضت عينيّ لعلي أهدأ.. انتظمت أنفاسي اللاهثة بعد فترة ليست بالوجيزة.. حاولت النوم مرة أخرى واستلقيت.. أنظر إلى المنبه الرابض بجانب فراشي لأرى أن الساعة لا تزال الرابعة صباحًا، وهذا يعني أن ما زال أمامي أربع ساعات أخرى من النوم قبل أن يوقظني المنبّه بصعوبة لأذهب إلى عملي.. أغلق عينيّ مرة أخرى بهدوء وأتدثّر بالأغطية، ولكن صوتًا

ظل يصرخ في عقلي أن هناك شيئًا ما ليس على ما يرام.. أفتح عينيّ مجددًا وألاحظ هذه المرة ذلك الشيء اللامع الذي يقبع بالقرب من المنبه.. أحاول تذكر ماذا كان ذلك.. لا أجد ما يشير في ذاكرتي إلى أني وضعت في ذاك المكان شيئًا.. حاولت أن أنام مرة أخرى وأقنعت نفسي أني سأتحقق منه في الصباح، ولكن ظل ذلك الشيء اللامع يثير الفضول بداخلي، حتى قررت أني لن أنام إلا إذا عرفت ماهيته.. قمت من رقدتي وأنا أعلم بداخلي أني لن أجد شيئًا ذا قيمة، ربما مسمار معدني وقع هناك بالصدفة منذ أسابيع.. تحركت على الأرض الباردة ووقفت للحظة أنظر إلى ذلك الشيء.. مفتاح معدني شكله يختلف عن كل المفاتيح التي رأيتها في حياتي.. تسمرت في مكاني من المفاجأة، فكيف بشيء لم أره من قبل في حياتي أن يشق طريقه إلى داخل حجرة نومي؟ لامست أصابعي المفتاح البارد بتردد، وتطايرت بقايا النوم من عينيّ.. جلست على الفراش وعيناي معلّقة بالمفتاح بين أصابعي، أعتصر ذاكرتي لعلي أعرف عنه شيئًا.. حاولت النوم مرة أخرى ولكن هيهات، فكلما أغمضت عيني رأيت صورة ذلك المفتاح وتسارعت عشرات الافتراضات العقلانية والمجنونة تتراقص في عقلي عن كيفية وصول هذا المفتاح إلى هنا.. في الصباح التالي اتجهت إلى عملي بعدما قررت أن أضم لغز المفتاح إلى سلسلة الأسئلة السخيفة التي لم ولن أعلم لها إجابة، مثل: أين تختفي جواربي؟ أين تختفي نقودي القليلة بعد عشرة أيام من بداية الشهر؟ أين يختفي البواب عندما تكون في أمسّ الحاجة إليه بينما تجده أمام عينيك طالما لا تريد منه شيئًا؟ لماذا قررت زوجتي أن تترك البيت فجأة دون مقدمات ودون حتى كلمة وداع؟ ربما نظرت إلى المفتاح لخمس دقائق أخرى ليلتها قبل أن أقرر أن ألقيه بعيدًا في أحد الأدراج حتى لا أشغل تفكيري به مرة أخرى.. نمت ليلتها آملاً أن تمرّ الليلة بسلام، ولكن كسابقتها استيقظت فزعًا قبل الفجر بدقائق.. نظرت إلى المكان

الـذي وجـدت فيـه المفتـاح في السـابق، ربمـا لأثبـت لنفـسي أن كل شيء عـلى مـا يـرام.. نظـرت للحظـة قبـل أن ينتصـب شـعر رأسي وتتوقـف أنفـاسي مـن المفاجـأة، وأقفـز واقفًـا مـن فـراشي.. شريـط مـن الأقـراص المنومـة مثـل الـذي كانـت زوجتـي تسـتخدمها عندمـا تعـاني مـن الأرق، علمتـه مـن لـون أقراصـه وشـكلها المميـز.. امتـدت أصابعـي المرتجفـة تلتقـط شريـط الأقـراص مـن مكانـه، بينـما قشـعريرة بـاردة تمتـد بطـول عمـودي الفقـري.. تهـاوى جسـدي عـلى أقـرب مقعـد موجـود بالغرفـة مـن حـولي، بينـما دوامـة مـن التسـاؤلات تعصـف بتفكـيري.. أُعمِـل تفكـيري في تفسـيرٍ منطقـي لوجـود تلـك الأشـياء التـي لم أرهـا مـن قبـل في غرفتـي.. إمـا أني جننـت أخـيرًا، أو أن للموضـوع علاقـة بـشيء خـارق أبعـد مـن علمـي.. لم أعلـم وقتهـا مـا أفعـل سـوى أن أَهُـبَّ مـن مجلـسي وأبحـث عـن المصحـف لأقـرأ فيـه حتـى الصبـاح.

كان الصبـاح التـالي مليئًـا بالمفاجـآت، بدأتـه بـأن وجـدت ذلـك الحبـل الغليـظ مخفيًـا بعنايـة في أحـد الأركان، بينـما كنـت أفتّـش الشـقة كلهـا لأرى إن كانـت هنـاك مفاجـآت جديـدة.. مفاجـأتي الثانيـة كانـت مـع البـواب، بينـما أغـادر مسـكني متجهًـا إلى عمـلي.. وجدتـه متجهـمًا أكـثر مـن عادتـه، ينظـر إليَّ كأنمـا يعاتبنـي في داخلـه، ولمـا سـألته عـن سـبب تجهمـه أجـاب والخـوف يُطِـلُ مـن عينيـه أن لا شيء.. رآني أحـد الجـيران فنـاداني وقـال:

- جيـدٌ أن أراك تحـاول مصالحـة البـواب، فـما أحدثتـه فيـه ليلـة البارحـة لم يكـن بالقليـل.

زاد جحـوظ عينـيّ الحمراويـن، بينـما تكاثـرت علامـات الاسـتفهام عـلى وجهـي، وجـاري يكمـل:

- لـو لم تكـن صالحتـه كنـت سـآتي إليـك.. أنـا أعلـم أنـك شـخص طيـب ومسـالم ولم أكـن أتوقـع منـك أن تفعـل مثـل ذلـك.

كانـت كل كلمـة تخـرج مـن فمـه تخلـق علامـة اسـتفهام جديـدة في

عقلي.. هل جُنَّ الكون أخيرًا من حولي، أم أن عقلي أنا الذي أصابه الجنون؟ استوقفت الجار قائلاً:

- ماذا تقول؟ ما الذي فعلت؟

- ألا تتذكر؟! لقد أيقظت جميع السكان على صوتك وأنت تسبه بأقذع الألفاظ، وأنهيت الأمر بأن لطمته على وجهه! بالمناسبة، ماذا فعل لكل هذا؟

كان كل هذا أكثر من قدرتي على التحمُّل.. قلة النوم، الإجهاد العصبيّ والنفسيّ، كل تلك الأسئلة المعلقة بلا إجابة.. لم أدرِ بنفسي إلا وقد أظلمت الدنيا من حولي، وغبت عن الوعي.

عندما أفقت وجدتني في نفس مكاني وجاري يرش الماء على وجهي، بينما علامات الجزع تملأ وجهه.. لم أعلم ما أفعل سوى أن أطلق ساقيّ للريح، ركضت في اتجاه الشارع بينما علامات الدهشة تملأ وجه الجار والبواب.. أركض بلا هدف بعينين لا تريان من أمامي، وعقل لا يتوقف عن طرح الأسئلة.. المفتاح، الحبل، المنوّم، الجار والبواب.. لا تفسير منطقي إلا أنني أمشي وأنا نائم، أو أنني ملبوس كما يقولون، أفعل أشياء دون أن أدري عنها شيئًا.. عندما تعبت قدماي واشتد لهاثي أفقت من أفكاري على النيل ممتد على مدى بصري.. استندت بكلتا يديّ على الكورنيش مواجهًا الماء وانهمرت في البكاء بلا صوت.

* * *

قبل أن أذهب معك.. الدفع مقدم والطعام عليك.

* * *

ظللت هائمًا على وجهي في الشوارع أتحرك بلا هدف.. سمعت أذان الظهر من مسجد قريب، فاتجهت إليه منكّس الرأس أشعر بالخجل، فأنا لم أدخل مسجدًا منذ زمن بعيد.. اغتسلت ووقفت في الصف خلف الإمام، وعندما انتهت الصلاة اتجهت إلى الإمام.

- السلام عليكم يا شيخ.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- عندي سؤال وأرجو أن أجد عندك الإجابة.

- اسأل وإجيبك إن كان عندي العلم إن شاء الله.

- منذ أيام وأنا أجد أشياء لا أعلم عنها شيئًا في منزلي، واليوم وجدت من يخبرني بأشياء لا أتذكر أني فعلتها.. هل أنا ممسوس؟

نظر إليّ مليًا ثم اعتدل في جلسته، وقال:

- اذهب وائتني بهذا المصحف من هناك.

أتيته بالمصحف فأمرني أن أفتحه وأن أقرأ عليه من سورة البقرة، ففعلت.. استوقفني سائلاً:

- هل تشعر بالضيق عند القراءة؟

- بالعكس.. أنا أشعر بالراحة.

- إذن ما بك ليس بمسّ من الجن، والله أعلم.

- إذن ماذا بي؟

- نصيحتي إليك، واظب على الصلاة والقرآن واستشر طبيبًا، فكما خلق الله الداء خلق له الدواء.

شكرته وقمت دون اقتناع حقيقي.. في طريق عودتي إلى المنزل عرجت على صديق لي في متجر للإلكترونيات، واشتريت كاميرا فيديو بكل ما في جيوبي من نقود.. إن كنت سأذهب لطبيب نفسي فلا بد أن أتأكد بنفسي أولاً مما يحدث لي.. لا بد أن أرى.

* * *

التصوير سيكلفك الضِعف يا باشمهندس.

* * *

عدت إلى منزلي ووضعت الكاميرا فوق دولاب في غرفة المعيشة.. تأكدت أنها ترى الغرفة بالكامل.. إن كان أحدهم يدخل من الباب

أثناء نومي سأراه، وإن كنت أنا أخرج دون أن أدري سأراني عندما أعود لوعيي.. أكلت بلا اكتراث، بضع لقيمات كانت عندي في الثلاجة متبقية من طعامي طوال الأسبوع.. صليت وقرأت القرآن كثيرًا ليلتها، وعندما آويت إلى فراشي تأكدت أن الكاميرا مشحونة جيدًا وأنها تسجل ما تراه.. آويت إلى فراشي دون نعاس وظللت أتقلب لساعتين دون نوم وعقلي لا يتوانى عن طرح الأسئلة.. انزلقت بعد ساعة أخرى إلى نوم ملأته كوابيس عديدة أبطالها مفاتيح أشكالها غريبة، وبوابون متجهمي الوجوه وجيران يتظاهرون بالاهتمام، وحبال غليظة معلقة كمشانق.. ليلة مثالية لإنهاء يوم مثالي كيومي.

في الصباح التالي لدى استيقاظي قمت جريًا إلى غرفة المعيشة دون حتى أن أغسل وجهي.. التقطت الكاميرا من مكانها وأعدت استعراض ما سجّلته في الليلة السابقة بنظام تسريع الصورة.. هذا أنا وأنا أضع الكاميرا مكانها.. كل شيء يبدو طبيعيًا.. باب الشقة المغلق لم ينفتح طيلة الليل.. لا عفاريت أو أشخاص يتحركون في الإضاءة الخافتة.. وضعت الكاميرا مكانها وبدأت تمشيط الشقة بالكامل بحثًا عن أشياء لم أرها من قبل هنا أو هناك.. إمعانًا في تخييب أملي لم أجد شيئًا، لا أنكر شعوري بالفرحة أن كل شيء مر بسلام في الليلة السابقة، ولكن خالطه شعورًا بخيبة الأمل لم أعلم مصدره.. أنام وأصحو أذهب إلى عملي ثم أعود إلى المنزل.. آكل بعض الطعام ثم أصلّي فروضي وأقرأ القرآن حتى يغلبني النعاس.. أضع كاميرا الفيديو في مكانها وأتفقّدها في الصباح التالي فلا أجد شيئًا يذكر.. ثلاثة أسابيع وأنا أواظب على هذا الروتين اليومي ولا شيء يحدث، حتى بدأت أقتنع أنه أيًا كان هو، فقد كان حالة عارضة وانتهت.. قررت أن أمارس الحياة بشكل طبيعي وأن أنسى كل ما حدث.. الليلة ليلة رأس السنة الميلادية الجديدة، والناس في الشوارع يصخبون ويحتفلون رغم البرد القارس.. وضعت الكاميرا كما

تعودت واندسست في الفراش تحت الأغطية الثقيلة أستعرض أحداث يومي المملة.. لا شيء يذكر سوى ما حدث هذا الصباح أثناء ذهابي إلى عملي أقود سيارتي المتهالكة وسط الزحام.. أقود بملل لم يكسره سوى توقف السيارة التي تتقدمني فجأة، مما دعاني إلى محاولة فاشلة لضغط الفرامل لم تنجح في إيقاف سيارتي في الوقت المناسب.. صدمت السيارة التي أمامي بقوة، فنزل منها شاب قوي البنيان ملامحه تنم عن غضب شديد.. رأى مكان الصدمة في سيارته فاشتاط غضبًا، وانطلق سيل من الشتائم من فمه.

- أيها الحمار الأعمى.. صدمت السيارة التي تساوي ثمنك وثمن أهلك.

لم يكن أمامي سوى أن أنزل لتهدئته ومحاولة التفاوض معه.

- ألا ترى من أمامك أيها الأعمى؟

- اهدأ وأنا سأصلحها لك على حسابي.. سليمة إن شاء الله.

- سليمة؟! تدمر السيارة وتقول سليمة يا حمار!

كان يحاول استفزازي بكل الطرق، يطوّح يديه ويتفنن في انتقاء السباب.. التفَّ الناس من حوله يحاولون تهدئته حتى لا يفتك بي، ولم يهتم أحدهم بوجودي من الأساس.. شعرت ساعتها بالهوان والضعف كما لم أشعر من قبل.. بركان غضب تصاعد في داخلي، ولوهلة أحسست أني أنفصل عن جسدي.. أن وعيي يتم إحلاله بواحد آخر.. أشعر به يتحكم في جسدي ولكن لا أقدر على منعه.. يتكلم بلساني قائلاً في عجرفة لم أعهدها.

- لماذا تثور هكذا؟ وكأن «مامي» ليست قادرة على شراء أخرى من أجلك أيها الطفل الكبير.

أحاول السيطرة على نفسي ولكن كأنني مجرد مشاهد مثل الآخرين محبوس داخل جسدي.

- جـزاء لـك عـلى انعـدام تربيتـك لـن أعطيـك شـيئًا، وإن كنـت رجـلاً تعـالَ خـذ حقـك بنفسـك.

علامـات اسـتفهام خالطتهـا علامـات تعجـب ظهـرت عـلى وجـوه الواقفين جميعًـا، فالشـاب قـادر عـلى سـحق جسـدي الضعيـف دون جهـد، فكيـف بي أهينـه وأسـتفزه لمواجهتـي.. لحظـات مـرت في صمـت جماعـي قطعهـا الشـاب الـذي اندفـع الـدم إلى وجهـه، بـأن تحـرك إلى ناحيتـي في سرعـة يدفع النـاس مـن حولـه.. طـوح قبضتـه في الهـواء مسـتهدفًا وجهـي.. انفصـل تمامًـا عـن جسـدي وتظلـم الرؤيـة تمامًـا للحظـات، أعـود بعدهـا إلى نفـسي لأجـد الشـاب ملقـى عـلى الأرض أمامـي وجهـه غـارق في الدمـاء ويـداي اللتـان اسـتعدتُ التحكـم بهـما تكيـلان لـه اللكـمات تتفجـر في أنفـه وفمـه وعينيـه، وفمـي لا يتوقـف عـن السـباب الثقيـل للحظـة.. رأت عينـاي المشـهد فهالنـي مـا رأيـت.. توقفـت في لحظـة أنظـر إلى يـديّ الملطختـين بالدمـاء في غـير تصديـق.. قمـت إلى سـيارتي هاربًـا مـن أعـين النـاس مـن حـولي واختفيـت عـن أنظارهـم في لحظـات.. لا أخفـي سـاعتها أن شـعوري بالذنـب الشـديد خالطـه شـعور بالزهـو والانتصـار.. أنـا الـذي لم أدخل عـراكًا في حيـاتي، أنهيت عـلى هـذا الشـاب في لحظـات.. تعجبـت بداخـلي مـن القـوة التـي أعطاهـا لي الغضـب والأدرينالـين.. القـوة التـي لم أعلـم حتـى اليـوم بوجودهـا داخـلي مـن الأسـاس.. نظـرت إلى يـديّ في تعجـب مـرة أخـرى، ثـم أغمضـت عينـيّ وانزلقـت إلى عـالم النـوم في نعومـة وابتسـامة انتصـار تمـلأ وجهـي.

* * *

هذا المنوّم سيجعلك تنام كالأطفال.. إنه مستورد يا أستاذ.

* * *

أفتـح عينـيّ في هـدوء وأتمطّـى في الفـراش.. مـا زلنـا في الليـل والظـلام يغلـف الأركان، مـما يعنـي المزيـد مـن النـوم لي.. أغلـق عينـيّ في خـدر لذيـذ وأمـد يـدي لأشـد الأغطيـه عـلى جسـدي.. أقفـز مـن الفـراش كمـن لدغـه

ثعبان، فهذا ليس بفراشي وهذه ليست غرفة نومي.. أهز رأسي في شدة أطرد بقايا النوم من عينيّ.

- أين أنا؟

صرخ السؤال بداخل عقلي.. أتفقد المكان من حولي.. غرفة رديئة وباب شرفة نصف زجاجه مكسور، وتلفاز حديث موضوع على نضد في الجهة المقابلة للغرفة، بدا شاذًا وسط رداءة الغرفة.. في الإضاءة الخافتة القادمة من خارج الشرفة تبيّنت شيئًا بجانب التلفاز.. اقتربت منه فوجدته كاميرا الفيديو خاصتي موصلة بالتلفاز بجانبها ورقة كتب عليها:

«شاهد واستمتع».

أضغط زر تشغيل الكاميرا كالمسحور لتظهر الصورة على التلفاز.. أرى غرفة المعيشة خفيفة الإضاءة بمنزلي وأحدهم يقترب من الكاميرا.. تهتز الصورة للحظات.. يحملها في مواجهة وجهه لأرى ملامحه واضحة.. هذا أنا أبتسم بهدوء وأكلم الكاميرا.

- نعم هذا أنت، أو بمعنى أصح هو أنا، ولكن ما أنا وأنت إلا وجهين لعملة واحدة.. ضدان يشتركان في نفس الجسد.

كانت علامات الاستفهام تتكاثر الآن على وجهي وكأنما يراني، استطرد:

- أنت لا تتذكر هذا لأنك لم تفعله في الأساس.. بل فعله جسدك تقنيًا ولكن بشخصي أنا، ولذلك أنت لا تذكر عنه شيئًا.. الموضوع صعب ويحتاج إلى شرح كثير، واليوم أنا أشعر بحاجة شديدة إلى الاستمتاع بالحياة.. هي ليلة رأس السنة وأنت نائم منذ التاسعة أيها الطفل، ولكن الليلة أنا سأدعك تشاهد فقط، لأني أكره الاستئثار بكل المتعة لنفسي.. إنه جسدك قبل كل شيء.

ضحكة شرسة تملأ وجهه، يتبعها بقوله:

- لنبدأ الصيد.

تسود الشاشة لثوانٍ مما يعني أنه أوقف التسجيل.. تعود الصورة من جديد وهو يضع الكاميرا في مواجهته في السيارة، قائلاً:

- يجب أن تشكرني على نظافة سيارتك، فمنذ أن صفعت ذلك البواب الغبي وهو ينظف لنا السيارة يوميًا.. بعض الصفعات قد تكون مفيدة أحيانًا.

ضحك بجذل وهو يدير المفتاح لتهدرالسيارة، وبدا عليه التأفف قائلاً:

- لا بد أن تغير سيارتك هذه في أقرب فرصة، فهى تسيء إلى صورتي.. لا أبالغ إذ أقول إن منظرها مهما كانت نظيفة يبعث على التقيؤ.

يضرب السقف بقبضته وينهي جملته.

- قطعة خردة.

تسودّ الشاشة لثوانٍ أخرى ثم تعود الصورة، وهو لا يزال في السيارة يحرك المقود يمينًا ويسارًا قائلاً:

- والآن لنختار لك فتاة جميلة لهذه الليلة الباردة.

يحرك الكاميرا بعض الشيء لتُظهِر جزءًا من وجهه والباب الجانبي.. يتحرك بمحاذاة الرصيف ببطء، يدور بعينيه كأنما يبحث عن شخص معين.. تظهر في الصورة فتاة بالغت في وضع مساحيق التجميل على وجهها، حتى لتبدو كعروس المولد.. ملابسها ضيقة تُظهر أكثر مما تخفي، تتحرك على الرصيف في وضع تتخيل أنه مغرٍ، ولكنه لم يزدها إلا قبحًا.. يبتسم بوقاحة ويغمز بعينه قائلاً:

- هذه مناسبة جدًا.. ألا تظن؟

يمشي بمحاذاتها ويطلق بوق السيارة مرتين حتى تنتبه.. تتحرك متأودة إلى ناحية السيارة تنظر حولها في حذر، ثم تميل مواجهة إياه قائلة بطريقة حاولت أن تجعلها مغرية، فخرجت مملة روتينية:

- هل تريد أن تمتع نفسك الليلة يا باشمهندس؟

- هذا ما أرجوه الليلة.
- قبل أن أذهب معك.. الدفع مقدم والطعام عليك.
- اركبي وسأعطيك كل ما تريدين وزيادة.
لمعت عيناها في طمع، فهي تظن أنها وقعت على صيد ثمين.
- هل بيتك قريب من هنا؟
- بيتي ليس بقريب ولكنه أمان.. أمان جدًا.
- وما هذا الشيء؟ هل تصورني؟
- هل يوجد مانع؟
تراجعت في مقعدها باسترخاء قائلة بطريقة عملية:
- التصوير سيكلفك الضعف يا باشمهندس.
- كل ما تريدين هو لك.
أظلمت الشاشة لثوانٍ لتعود الصورة من جديد تصور الفتاة تتحرك بصعوبة على أرض ترابية، تتجه إلى بيت وحيد وسط اللا شيء، لا شيء أمامه إلا عامود نور وحيد لم ينجح في تبديد الظلام المحيط.. تشد ملابسها على جسدها اتقاءً للبرد، قائلة:
- أرجو أن يكون طعامك دافئ وعندك الكثير من الأغطية.
لا يرد عليها، بل يتقدمها إلى الباب ويخرج من جيبه المفتاح الغريب الذي وجدتُه منذ ثلاثة أسابيع، ويدسه في الباب فينفتح بصرير شديد، فتشهق الفتاة قائلة:
- أهي مغارة علي بابا؟!
- ألم أخبرك بأن المكان أمان!
- وهل في هذه المغارة مياه ساخنة تصلح للاستحمام؟
- طبعًا.. الحمام من هناك.. اذهبي حتى أُعدّ لنا شيئًا لنأكله.
تتأود أمام الكاميرا وتظلم الصورة من جديد.. تعود الصورة للكاميرا توضع على طاولة قذرة فيما يشبه المطبخ، وصوت قطرات ماء تصطدم

بـالأرض في الخلفيـة.. أراه يخـرج شريـط المنـوم مـن جيبـه ويطحـن بضـع حبـات يضعهـا في العصـير ويقلّبـه.. يتكلـم إلى الكامـيرا:

- هـذا المنـوم لتهدئتهـا.. لا يوجـد أحـد عـلى بعـد كيلومـترات، ولكنـي لا أحـب الـصراخ.

وضع فمه أمام الكاميرا كأنه يُسرّ إليها:

- ربمـا لهـذا أحببـت زوجتـك جـدًا، فبرغـم كل مـا فعلتـه أنـا فيهـا لم تـصرخ، وهـذا مـا جعلنـي أعلـم أن هـذا المنـوم لـه مفعـول السـحر.

تظلـم الشاشـة مـن جديـد لتعـود الصـورة في داخـل الغرفـة التـي أجلـس فيهـا، وهـو يقـدم لهـا العصـير وهـي تقـوم بتمشـيط شـعرها.

- ولكني أريد أن آكل أولاً؛ أنا جائعة.

- هذا حتى ينتهي إعداد الطعام.

تشربـه غـير عالمـة بمـا بداخلـه دفعـة واحـدة، وابتسـامة انتصـار تمـلأ وجهـه.. تخـرج مـن حقيبتهـا موبايـل صينـي وتضغـط عـلى أزراره في سرعـة.. تخـرج منـه موسـيقى لأغنيـة شـعبية بصـوت عـالٍ جـدًا تبـدأ مـن بعدهـا في الاهتـزاز.. تبـدأ رقصـة محمومـة عـلى تلـك الموسـيقى الرهيبـة وهـو يتراقـص معهـا ويلامسـها في جـرأة.. تـدوم الرقصـة خمـس دقائـق، بـدأت بعدهـا قدماهـا في التخبـط.. المنـوم يـأتي مفعولـه ويبـدأ في اللعـب برأسـها.. يتحـرك إلى خـارج الصـورة ليظهـر بعدهـا بثـوانٍ يمسـك بحبـل غليـظ في يديـه.. يـأتي مـن ورائهـا بـكل هـدوء وهـي تتراقـص مغمضـة العينـين، تحـاول السـيطرة عـلى وعيهـا الـذي بـدأ في التـسرب.. يطبـع قبلـة حانيـة عـلى خدهـا، ثـم يلـف الحبـل عـلى عنقهـا ويشـده بـكل قوتـه عـلى مؤخـر عنقهـا.. قلبـي يوشـك عـلى القفـز مـن فمـي وأنـا أراه مـن أمامـي يشـد الحبـل ويقهقـه ضاحـكًا، بينـما الفتـاة شـبه المخـدرة تشـهق محاولـة التنفـس.. دقيقـة كاملـة مـرت والفتـاة تتشـنج بـين يديـه حتـى تراخـت أطرافهـا إلى الأبـد.. ظـل لدقيقـة عـلى وضعـه ليتأكـد مـن موتهـا، ثـم تـرك الحبـل لتقـع جثـة هامـدة

على الأرض.. ابتسم في استمتاع واقترب من الكاميرا وحملها في مواجهته قائلاً:

- منعش، أليس كذلك؟ أنا الآن واقعك ولن أتركك إلا وقد محيت نصفك الضعيف الخائب من الوجود.. لا تحاول الهروب لأنك ستجدني مهما هربت، ففي النهاية أنا وأنت.. واحد.

تثاءب بعنف ثم أكمل بمرح:

- والآن أتركك لأنام قليلاً.. تصبح على خير.

أظلمت الشاشة للمرة النهائية وتركتني فاغرًا فاهي في غير تصديق.. لدقائق وقفت كالتمثال بلا حراك ثم دبّت الحياة في قدميّ.. تحركت إلى خارج الغرفة لتصطدم قدمي بجسد كان لفتاة جائعة تظن أنها مغرية.. دارت عيني في المكان وأخذتني قدماي إلى الحمام الذي لا يظل دافئًا من أثر الماء الساخن.. نظرت في المرآة المشروخة أمامي لأرى صورتي التي انقسمت إلى قسمين.. أوشك أن أنفجر في البكاء، ولكن دموعي تحجرت في عينيّ.. أقف في تحدٍ أنظر إليه في المرآة.. أحرّك رأسي يمينًا ويسارًا فيحركها مثلي.

- أنا الآن واقعك.

أسمعها كالفحيح في داخل عقلي.. لم أتردد كثيرًا، فأنا قد اتخذت قرارًا لا رجعة فيه.. أمد يدي أمسك قطعة من زجاج المرآة المكسور وأنظر إلى المرآة في شماتة ثم أمررها على أوردة معصمي.. أسمعه يئن بداخلي يحاول أن يخرج ليوقفني، ولكني أقطع عليه الطريق بأن أشق معصمي الآخر.. هوة سوداء تكبر أمام عيني، تسحبني إلى داخلها في نعومة.. أسقط على الأرض في بركة صنعتها دمائي.. على الأقل بقتلي نفسي أضمن أنه لن يؤذي شخصًا آخر بعد الآن.. أبتسم للمرة الأخيرة قائلاً بصوت خفيض:

- في النهاية أنا وأنت.. واحد.

دورية

ما نحتاجه الآن هو رسالة واضحة لأناس هذا البلد.. هذه الرسالة لا بد أن تُقرأ في كل جريدة، تسمع في كل راديو، تشاهد في كل محطة تليفزيونية.. أريد لهذا البلد أن يفهم أننا نقف على حافة النسيان.. أريد لكل رجل وامرأة وطفل أن يفهم كم قربنا من الفوضى.. أريد من الجميع أن يتذكر، لماذا يحتاجون إلينا.

V for Vendetta

- صدقني يا محمود، شباب هذه الأيام قليلو التربية.

يشد نفَسًا من سيجارته وهو يغمض عينيه، ثم ينفثه في استمتاع.

- يسمون أنفسهم متمردين.. ثوار، ولكن حقيقة الأمر أنهم مجرد...

يبحث عن كلمة مناسبة للحظات ثم لا يجدها فيهز كتفيه ورأسه.. ينفث الدخان مرة أخرى ويسترخي في مجلسه في السيارة.

- أهلهم انشغلوا في جمع الأموال وتركوهم للتلفاز اللعين ليقوم بتربيتهم.. يشاهدون الأفلام الأجنبي طوال الليل والنهار.. يعوجون ألسنتهم ويتكلمون بالإنجليزية، ثم يبدؤون في التمرد على كل ما ليس أجنبي من حولهم.. حرية وديموقراطية ومهلبية.. كلمات لا يعلمون عنها شيئًا.

ينظر إلى عيني في عمق ويكمل:

- يريدون الفوضى يا محمود.. الفوضى.

أهز رأسي دون اقتناع حقيقي، فيكمل:

- أنا وأنت لسنا من هؤلاء.. لقد قام أهالينا بتربيتنا جيدًا.. علمونا كيف نعتمد على أنفسنا.. كيف نأتي بالقرش.. تعرضنا للصفعات والركلات كل يوم، لهذا أصبحنا ما أصبحنا عليه اليوم.

نَفَس أخير من السيجارة قبل أن يلقيها، ليشعل غيرها في سرعة ويستطرد:

- شباب هذه الأيام لم يحصلوا للأسف على القدر الكافي من الصفعات والركلات، لهذا أصبحوا ما أصبحوا عليه.. كان يكفينا أن نرى المدرس يمشي في الشارع خارج المدرسة، فنرتجف في الفراش لمدة أسبوع، أما اليوم...

يرتسم الازدراء على وجهه.

- أما اليوم فيثورون على كل أشكال السلطة.. يظنون أنفسهم لا

يُقهرون، مع أنهم جربوا الحياة من دوننا لأسبوع فقط فلم يستطيعوا.. توسلوا إلينا وقبّلوا أيادينا لنعود لنحميهم من جديد.. صدقني لو كنا تركناهم أسبوعًا آخر لبدأ كل منهم في أكل الآخرين.

ينظر إلى الافق في شرود.

- نحن القانون يا محمود.. دورنا وواجبنا المقدس أن نفرض النظام مهما كان الثمن.. لا نحارب الجريمة بل نمنعها من الأساس.. إياك أن تظن أن الرتب الكبيرة في المكاتب الفخمة هم من يقومون بالمهمة.

يبتسم من سذاجتي التي افترَضها وصدقها.

- بل نحن يا محمود.. رجال مثلي ومثلك تربوا جيدًا وطحنتهم الدنيا هم من يوفرون أهم ما يحتاجه كل إنسان.. الأمان.

يشير إلى الشارات على كتفه ويقول:

- هذا هو الأمان.. مجرد رؤيتهم لنا في الشوارع يدخل الأمان إلى قلوبهم.. إحساسهم أننا موجودون من أجلهم، كالخراف الضالة لا تطمئن إلا في وجود الراعي ورؤيتها لعصاه.. الزيّ الميري هو الأمان.. تذكّر هذا جيدًا.

يبتسم في هدوء.

- أتعلم! عندما لا ألبس الميري أشعر بالعُري.. لو كان الأمر بيدي لنمت واستيقظت به،

أبتسم من حديثه في تعجب فتتغير ملامحه للحظات.

- لن تفهم ما أقوله الآن، فأنت ما زلت جديدًا، ولكن تذكره جيدًا، فسيأتي اليوم الذي تفهم كلامي فيه.

يسكت فجأة كما بدأ الكلام، فأنظر إلى الأمام في شرود.. سمعت كثيرًا عن بدوي ولكن لم أقابله وجهًا لوجه إلا اليوم.. الأمين بدوي أعجوبة قسم الطالبية، الكل يتكلم عنه، إما يتناقلون أخباره ونوادره وإما يتهامسون عن فحشه وعنفه.. لم أقابل أحدًا منذ بدأ تعييني في

القسم إلا ويعرفه، ولكني لم أقابله وجهًا لوجه إلا اليوم بصدفة عجيبة.. العسكري سائق الدورية الراكبة الذي يعمل معه جاءته وعكة صحية، يقال إنها تسمم من طعام فاسد، والليلة هي ليلة رأس السنة وكل الدوريات في الشوارع ولا سائقين ليحلوا محله.. وفي أقل من دقائق وجدتهم يسلمونني مفاتيح السيارة لأحل محل سائقها المريض هذه الليلة.. أحدهم قال لأحدهم إن له خبرة جيدة في القيادة، إذ عملت في قيادة سيارة أجرة قبل أن ألتحق بالشرطة.. وصل الكلام لبدوي فاستدعاني.. نظر إليّ من فوقي إلى تحتي، ودون كلمة واحدة رفع يده بمفاتيح السيارة.

- متى يعود الباشا؟

تفوهت بالعبارة محاولاً كسر جدار الصمت فضحك حتى سعل.

- الباشا لن يعود.. الباشا الآن نائم في فراشه بجوار المدام.

في لهجة ساخرة أكمل.

- هل كنت تظن أنه عندما قال أريد أن أمر على البيت لأني نسيت شيئًا، أنه قد نسي شيئًا بالفعل؟ هل تظن أن الباشا سيظل معنا في هذا البرد القارس يدور في الشوارع حتى الصباح؟

ابتلعت سخريته وأنا أحاول تفادي ميكروباص لعين يحاول المرور في الغالب من فوق سيارتنا.. رأيت جدارية عظيمة على جانب الطريق، فيها أربعة حروف إنجليزية تتكرر بلا انقطاع وتلتف حول نفسها.. قرأتها بعينيّ.. A.C.A.B.. لا أعلم عن الإنجليزية إلا حروفها وبعض الكلمات العالقة في ذهني من أيام الدراسة.

- هل تعرف ما معنى هذه الحروف؟

نظر في ازدراء إلى الجدارية.

- أراهن أن من كتبها لا يعلم معناها من الأساس.. مجرد تقليد أعمى لبعض الشعارات الأجنبية الصهيونية.. محاولات للفذلكة لم ينتج

عنهـا إلا تشـويه الشـوارع بهـذا الشـكل.

شرد ببصره وابتسم كأنما يتذكر.

- لقـد أمسـكت بواحـد مـن هـؤلاء الفتيـة الذيـن يرسـمون تلـك الأشـياء في الشـوارع ذات يـوم.. جعلتـه يكـره اليـوم الـذي ولـد فيـه.. لم أتركـه إلا وقـد خلـع كل ملابسـه ودهنـت جسـده بالكامـل بالطـلاء.. كلـما تذكـرت منظـره وهـو يجـري في الشـارع عاريًـا لا أسـتطيع منـع نفـسي مـن الضحـك.

حاولـت أن أبتسـم مجاملاً، فخرجـت ابتسـامتي باهتـة مرتعشـة، ولكنـه لم يهتـم، فأكمـل:

- أراهـن أنـه يخـاف الآن أن يقـترب مـن علبـة طـلاء، ولـو حتـى ملقـاة في الشـارع.

لمـح التوتـر يـسري في ملامـح وجهـي، فاسـترخى في جلسـته بجانبـي وهـو يكمل :

- لا تتوتـر هكـذا، فـكل مـا فعلتـه أني شـددت أذنـه.. لقـد قوّمتـه يـا محمـود، وهـذه هـي وظيفتنـا الحقيقيـة.

سكتّ للحظات وكأنه يفكر، ثم قال:

- والآن ادخل الشارع المقبل.

أنفـذ أوامـره في صمـت.. نتحـرك مـن شـارع إلى آخـر وسـط زحـام وصخـب رأس السـنة.. أرى نظـرات شـتى في أعـين النـاس مـن حـولي، إذ تمـر سـيارتنا الزرقـاء بشـكلها المميـز مـن أمامهـم.. أرى نظـرات باسـمة مطمئنـة وأخـرى سـاخطة غاضبـة.. نظـرات زجاجيـة متراخيـة لا ترانـا وأخـرى ثاقبـة كأنمـا تريـد أن تحرقنـا.. أنظـر بجانـب بـصري إلى بـدوي فـأراه أرجـع رأسـه إلى الـوراء مغمضًـا عينيـه في اسـترخاء.

- الشارع المقبل إلى اليسار.

يقولهـا ومـا زال جفنـاه مغمضـين، يحفـظ الطريـق، فـلا يحتـاج حتـى أن يفتـح عينيـه.

- الآن توقف إلى جانب الطريق.

يقولها وهو يفتح عينيه في تؤدة، فأمتثل لأوامره.. يشير بيديه إلى ما حوله قائلاً:

- والآن ننتظر.

- ننتظر ماذا؟

- كل في وقته؛ لا تتعجل.

يبتسم مكملاً:

- أنت ورزقك، فالليلة ما زالت بكرًا.

مرت نصف الساعة في صمت لا يقطعها إلا صوت أنفاس الأمين بدوي المحملة بدخان سجائره.. ينظر إلى الطريق في تمعّن كأنما ينتظر أحدهم.. أرى سيارة فارهة تتوقف إلى جانب الطريق من بعيد.. يتحرك أحدهم من على الرصيف ناحية السيارة في حذر، ناظرًا حوله في كل الاتجاهات.. لم تتناسب هيئته بلحيته نصف النامية وملابسه المهترئة مع السيارة التي تفوح منها رائحة الثراء الفاحش.. تمتد يده إلى جيبه ويخرج لفافة يسلمها إلى قائد السيارة، ويستلم منه نقودًا يضعها في جيبه وهو يتلفت حوله مرة أخرى للاطمئنان.. يرى بدوي نظراتي فيتكلم موضحًا المشهد:

- هذا صلاح، أقذر موزع مخدرات قد تعرفه في حياتك.. يتنافس هو وبضاعته في السوء، لا تعلم أيًا منهما أسوأ من الآخر.

أرى السيارة الفارهة تتحرك وتبتعد، وصلاح يبتسم لسائقها في مداهنة.

- ألن نتحرك وراء السيارة؟

أسأله في دهشه، فيجيب بابتسامة:

- لا طبعًا هل جننت؟! ألم تر شكل السيارة؟

رأى اندهاشي وعلامات التعجب التي بدأت في التراقص على وجهي،

فاستطرد مفسّرًا:

- السيارة الفارهة تعني أشخاصًا أثرياء.. شخص ثرى يعني له علاقة شبه مؤكدة برتبة كبيرة على الأقل، إن لم يكن أكثر من رتبة.. رتبة كبيرة تعني خراب بيتي وبيتك، لأننا قمنا بتعكير مزاج الباشا الصغير قائد السيارة، أو على أقل تقدير توبيخ شديد من الباشا المأمور لي، وفي النهاية سيعود الباشا الصغير إلى البيت وسيدخن قطعة الحشيش الردىئة باستمتاع.. يجب أن تعلم أن هناك حدودًا لا نتعداها، ليس خوفًا لا سمح الله، فأنا لا أخاف إلا من خالقي، ولكنها مجاملات لا بد منها.

بدا السخط على ملامحي فأكمل في لهجة حنون:

- هذه أشياء لا يعلّمونها لك في المعهد، ولكن يجب أن تتعلمها إذا أردت أن تكون شيئًا.

- ألن نداهم صلاح هذا على الأقل؟!

- صلاح! إنه مجرد وغد جائع لا أكثر.. سمكة شديدة الصغر في محيط لا متناهي لا يجب أن تعطيها أي اهتمام.. أقبض عليه اليوم وسيأتي غدًا عشرة أشخاص يحلون محله لا نعلم عنهم شيئًا.. ربما أخطر منه بكثير.

يسكت لوهلة، ثم يكمل:

- ثم إنه مفيد جدًا لنقبض عليه.

- مفيد فيم؟! في بيع المخدرات؟!

- في المعلومات أيها الأحمق.. إذا أردت أن تكون شيئًا في هذه الشوارع لا بد أن تعلم كل شيء عن كل شخص.. صلاح جرذ بائس ولكن معلوماته قيمة للغاية تسمح له بأن تجعلني أغض بصري عنه لبعض الوقت، طالما كان تحت السيطرة، أما إذا خرج عن سيطرتك ورأيت أنه يكبر أكثر من اللازم لا بد أن تقضي عليه على الفور.. هو يعلم هذا ويعلم

أنني أعلم هذا، لذا لا يحاول أن يتخطاني.

يشير بإصبعه إلى فتاة بالغت في وضع مساحيق التجميل على وجهها حتى لتبدو كعروس المولد.. ملابسها ضيقة تظهر أكثر مما تخفي، تتحرك على الرصيف في وضع تتخيل أنه مغرٍ، ولكنه لم يزدها إلا قبحًا، قائلاً:

- انظر إلى هناك.. هذه سميرة.. فتاة فقيرة جائعة مثلها مثل صلاح، ساعدتني الأسبوع الماضي في القبض على شبكة دعارة، لذلك أتركها تلعب الليلة ولا أضعها في الحجز مع مثيلاتها.

أرى سيارة تتوقف بجانب سميرة، ويطلق سائقها البوق مرتين فتتحرك ناحيته.. أحاول الكلام.

- ولكن هذا خطأ.

- نحن القانون يا محمود.. نحن نعرّف الخطأ والصواب، بما يضمن الصالح العام.. صلاح لم يضر أحدًا إلا بمخدراته القذرة التي قد تتسبب في تلف مخ من يشترونها منه بإرادتهم.. سميرة تحاول فقط أن توفر وجبة ساخنة لها ولعائلتها.. هم مجرد أعين وأيادٍ لك يجب أن تأخذ منهم أكثر مما تعطيهم مئة مرة.. إذا انتهى دورهم ألقِهم في الحجز مثل غيرهم.

لم يترك لي الفرصة في التفكير في كلامه، فأكمل آمرًا:

- والآن تحرك بالسيارة، فلن نقف هنا طيلة الليل.

أفكاري مبعثرة داخل عقلي كالدخان، كلما أطبقت يداي عليه تبعثر من حولها ليتشكل في ألف شكل آخر.. أفكر في كلماته.. في منطقه الملتوي.. أتذكر أول مرة رأتني أمي بالمير فانطلقت منها الزغاريد تملأ بيتنا الحزين.. أقارن بين كل ما رأيته وتعلمته داخل القسم، وما تعلمته الليلة مع الأمين بدوي.. لم يقطع سريان أفكاري إلا صوت هاتف بدوي المحمول.

- أهلاً يا باشا.

يستمع باهتمام إلى ما يقال له من الطرف الآخر.

- اطمئن يا باشا؛ كل شيء على أحسن حال.

ينظر إليّ بطرف عينه إذ يستمع إلى محدّثه.

- لن يحدث ما يعكر صفو سيادتك، لن يحدث هذا طالما أتنفس يا باشا.

- مع ألف سلامة يا باشا.

يغلق هاتفه ثم يتكلم وهو ينظر إلى الطريق قائلاً:

- إنه الباشا يطمئن أن كل شيء على ما يرام.

ينظر إلى ناحيتي مُكملاً في لهجة شديدة:

- أليس كل شيء على ما يرام؟!

أومئ برأسي في بطء وأنا أحاول ألا أنظر إليه، فينظر أمامه من جديد قائلاً:

- جيد.. هذا ما ظننت.

نمر على شارع طغى الظلام على معظمه، توقفت فيه سيارة تنبعث منها أصوات أغنية أجنبية بصوت عالٍ.. يقول بدوي بلهجة ظافرة:

- توقف هنا؛ يبدو هذا صيدًا جيدًا.

يترجّل ويتحرك ناحية السيارة المتوقفة في بطء وخيلاء.. أشاهده من مكاني وهو يقترب من نافذة السائق، ويطرق زجاجها بشدة.. أرى على الضوء الضعيف قائد السيارة الشاب يحاول إخفاء شيء ما، الأمر الذي جعل الأمين بدوي يفتح الباب بسرعة، ويجرجره إلى الخارج في عنف، ليرميه على الأرض بجانب السيارة.. يتأوّه الشاب بصوت مسموع فيتركه بدوي ويتحرك إلى جانب السيارة الآخر، الذي أرى فيه الآن شابًا آخر يجلس متجمدًا في مكانه.. يفتح الباب ويجرجر الآخر بجوار صديقه دون مقاومة تُذكر.. أسمعه يقول بصوت آمر لهما:

- قم وقِفَا أنت وهو.

يمتثلان لأمره ويقفان بصعوبة، مما جعلني أقدّر أنهما مخمورين.. يتجه إلى السيارة ونظره لا يفارقهما.. يجلس بالداخل للحظات، يخرج بعدها وفي يده زجاجة كبيرة تبدو كزجاجات الخمر التي كنت أراها في الأفلام مع كيس أسود كبير في اليد الأخرى.. ينظر إلى وجهيهما في ازدراء آمرًا:

- أمامي إلى البوكس.. أنا أعلم أناسًا في الحجز سيرحبون بكم جدًا.

يقودهما إلى سيارتنا ووجهيهما في الأرض.. يسلمني الزجاجة الكبيرة وأنا جالس في مكاني ويحتفظ بالكيس معه.. يغمز لي بعينه ويبتسم ابتسامة أثارت مخاوفي، فترجلت لأشاهد ما سيفعل.. يقف أمامهما في خيلاء ويده على سلاحه.

- ألا تشعرا بالخزي من نفسيكما؟!

يحاول أحدهما تجميع الكلمات قائلاً بصوت متخبط.

- يا باشا هذه أول وآخر مرة.

يلطمه الأمين بدوي على وجهه، فيقع الشاب على الأرض، قائلاً بصوت جهوري:

- لا تتكلم دون أن أطلب منك الكلام.. أعطوني بطاقات هويتكم ثم أفرغوا ما في جيوبكم على الأرض.. كل ما في جيوبكم.

يمتثلان لأمره فيخرجان بطاقتيهما ويعطيانها له، فينظر إلى البيانات في اهتمام.. يكلمهما، بينما يضعان هواتفهما على الأرض بجانب حفنة من الأموال خرجت من جيوبهما.

- طالبان في جامعة محترمة وتسكران في الطريق مثل المتشردين.. أتظنان أنفسكما أصبحتما رجالاً لأن الشعر بدأ في الظهور تحت أنوفكما؟!

ينظر إلى الأرض فيرى المال والهواتف، فيكلمهم:

- هل هذا هو كل ما في جيوبكما أم سأضطر إلى تفتيشكما بنفسي؟

يهـزان رأسـيهما في سرعـة بالنفـي خشـية بطشـه بهـما، ويقـولان في صـوت واحـد:

- هذا كل ما معنا يا باشا.

ينظر ناحيتي آمرًا:

- تعالَ يا محمود، خذ هذه الأشياء وضمها إلى الحرز.

لم أفهـم عـن أي حـرز يتكلـم، ولكنـي أسرعـت ألملـم الأشـياء المتراصـة عـلى الأرض، بينـما أتحـاشى النظـر إلى أي مـن الواقفـين.. أسـمعه يتكلـم في ازدراء:

- اسـمع منـك لـه، أنـا أسـتطيع القضـاء عـلى مسـتقبلكما الآن، لكـن أنتـما شـكلكما أولاد نـاس.

يلمع الأمل في عينيهما، فيستطرد:

- لكن حتى أستطيع إطلاق سراحكما لا بد أن يختفى هذا الحرز.

يشـير بيـده إلى الكيـس المُلقـى عـلى الأرض الـذي أخرجـه مـن سـيارتهم ويتحـرك إلى الـوراء خطـوات.. يقـترب أحدهـم مـن الكيـس ويخـرج زجاجـة صغـيرة ذات غـلاف أسـود لم أميّزهـا.. ينظـر إلى الأمـين بـدوي في تسـاؤل، فيومئ لـه برأسـه في بـطء.. يفتـح الزجاجـة بسرعـة ويفـرغ نصفهـا في فمـه دفعـة واحـدة ومـا زالـت عينـاه عـلى وجـه بـدوي.. أنهـى الزجاجـة في أقـل مـن دقيقـة، فأشـار لـه بـدوي بيـده مـا معنـاه أن أسرع.. يُخـرج زجاجتـين أخريـين مـن نفـس النـوع وينـادي صاحبـه في عصبيـة:

- تعال ساعدني يا حمار.. هل تريد أن تقضي ليلتك في الحبس؟

يشربـان ويشربـان.. عـشر زجاجـات أفرغاهـا في فميهـما في دقائـق قليلـة، والأمـين بـدوي يشـاهدهما باسـتمتاع ويدخـن سـيجارته ببـطء.. في النهايـة لم تسـتطع معـدة الأول أن تتحمـل، فأمسـك بطنـه وأفـرغ معدتـه عـلى الأسـفلت، ليتبعـه الثـاني بعدهـا بلحظـات، ليقعـا كلاهـما في النهايـة في بركـة مـن القـيء والزجاجـات الفارغـة ترسـم نصـف دائـرة مـن حولهـما.. يمـط

بـدوي شـفتيه ويلقـي مـا تبقـى مـن السـيجارة عـلى الأرض ويقـترب مـن جسـديهما، قائـلاً مـن بـين أسـنانه:

- تذكـرا هـذا المـرة القادمـة التـي تفكـران فيهـا في شراء الخمـر.. هـذه المـره سأسـامحكما ولكـن إذا رأيـت وجهيكـما مـرة أخـرى لـن أرحمكـما.

يلقـي البطاقـات عـلى وجهيهـما اللذيـن شـابهما الإعيـاء، في ازدراء.. ينظـر إلى ناحيتـي حيـث وقفـت بعينـين مفتوحتـين عـلى آخرهـما دون حـراك، قائـلاً:

- هيا فلن نبيت ليلتنا بجانبهما.

* * *

- إذن.. ما رأيك؟

منظـر الشـابين لم يفـارق خيـالي بعـد.. لم أجـد إجابـة، فقلـت الـشيء الوحيـد الـذي فكـرت فيـه:

- لا أعرف.

- لا تعرف ماذا؟ لقد أسديت إليهما خدمة.

- لقد دمرتهما.

قال في نفاد صبر:

- لقـد أعطيتهـما ذكـرى مرعبـة عـن الخمـر لـن ينسـياها أبـدًا.. ثـم أليـس هـذا أفضـل مـن أن أذهـب بهـما إلى القسـم ويُدمَّـر مسـتقبلاهما؟ لا بـد أن تشـكرني إذ لم أفعـل هـذا.

- لقد أخذت أموالهما وهواتفهما.

اتسعت ابتسامته مجيبًا:

- لا لقـد أخذنـا أنـا وأنـت أموالهـما وهواتفهـما.. ثـم يـا أخـي أليـس لـكل عـلاج ثمـن؟ اعتـبر أنهـما ذهبـا إلى الطبيـب ودفعـا ثمـن العـلاج.. لقـد شـفيتهم مـن إدمـان الخمـر إلى الأبـد.

لم أجـد ردًا مناسـبًا، فسـاد الصمـت للحظـات، أنقذنـا منـه صـوت جهـاز

الإرسال:

- على جميع الوحدات القريبة من السيرك القومي الاستجابة.

تخيلت أنه سيرد عليهم، ولكنه جلس دون أن يفعل شيئًا.

- ألن نرد عليهم؟! نحن قريبان جدًا من هناك!

- لا.. دعك منهم.. ليس لي بال للسيرك اليوم.

- ربما شيء مهم.

أشار إلى رجل وامرأه ترتدي فستانًا أحمر فاضحًا، يخرجان من أحد البيوت، متجهمين يقصدان سيارة مركونة إلى جانب الطريق، وقال:

- لا.. هذا يا صديقي هو الشيء المهم.

شاهدتهما يدلفان إلى سيارتهما في سرعة دون كلمة واحدة، وينطلقان أمامنا، وسمعت بدوي يأمرني:

- وراءهما وإياك أن يضيعا منك.

فعلت مثلما قال، وتحركت وراءهما من شارع إلى آخر لدقائق، حتى قال:

- والآن سر بجانبهما.

سرت بمحاذاتهما فرأيت بدوي يتفقدهما بنظرة الصياد الخبير.. تجمدت نظراته للحظات على المرأة ليبتلع ريقه بصوت مسموع.. أشار للرجل قائد السيارة أن يتوقف، فارتسم التساؤل على وجهه، وسمعت المرأه تقول له:

- توقف لنرى ماذا يريدان.

نفس المشية الخيلاء.. نفس النقرة على الزجاج.. نفس الابتسامة القبيحة، زادت عليها نظرة شهوانية خاطفة إلى المرأة.. يسألهما الاطلاع على رخصة السائق ورخصة السيارة.. ينظر إليهما باهتمام زائف.. يطلب منهما النزول من السيارة.

- خير يا باشا!

- هل تعرف هذه السيدة؟

- طبعًا إنها زوجتي.. هل تريد رؤية قسيمة الزواج؟!

- لا أنا أصدقك.. ولكن عندي تساؤل.

- تفضل.

- ألا يوجد عندك بعض الرجولة كي تمنع امرأتك أن تخرج بهذا الشكل؟!

بهت الرجل الذي لم يتوقع هذا السؤال، فنظر إلى بدوي في غضب متسائلاً:

- ماذا تقول؟

- قلت ما سمعته.

- كيف تجرؤ؟

اتسعت ابتسامة بدوي ورأيت التماعًا غريبًا في عينيه.

- كيف أجرؤ؟! كيف أجرؤ؟!

ظل يردد الكلمة وابتسامته تتسع أكثر وأكثر، ليباغت الرجل فجأة بركلة في معدته يتبعها بقبضته التي وجّهها إلى فمه.. تحوّلت لهجته إلى الغضب وهو ما زال يكرر نفس السؤال.. يقع الرجل على الأرض فينهال على جسده ركلاً في معدته وصدره.

- سأريك الآن كيف أجرؤ أيها المخنث.

نزلت المرأه من السيارة وتبدأ في الصراخ فينهيها، قائلاً:

- اخرسي أيتها العاهرة وإلا قتلت زوجك أمامك الآن.

احتبس صراخها في حلقها ووقفت مكانها تشاهد ما يحدث، والدموع تغرق وجهها.

- سأريك كيف أجرؤ أنت وزوجتك أيتها الكلاب.

كنت أشاهد ما يحدث مشدوهًا، لا أعلم هل أظل مكاني أم أذهب إلى ناحيتهم لأوقفه قبل أن يقتل الرجل.. بدوي يلهث.. الرجل يتأوه

والمرأة ترجوه أن يتوقف.. يداي تجمدتا على مقود السيارة لا تريدان أن تتحركا.. رأيت بدوي يرفع عقيرته ويصرخ وسط لهاثه:

- محمود.. أحضر الزجاجة الحرز من عندك.

تحررت يداي مع كلماته، فهرولت إلى ناحيته ومعي الزجاجة التي طلبها.. أمسكها بكلتا يديه.. فتح غطاءها وسكب نصفها على ملابس الرجل ليغلقها مرة أخرى.. نظر ناحية الرجل والشرر يتطاير من عينيه:

- هذا محضر قيادة وأنت مخمور.

أشار إلى زوجة الرجل مكملاً:

- أما هذا ففعل فاضح في الطريق العام.

دار بعينيه بين الرجل والمرأه سائلاً:

- هل تريدان أن نجعلها إتجارًا في المخدرات؟ حيازة سلاح بدون ترخيص؟ أي شيء تريدان.

- لا أرجوك سنفعل أي شيء تريد.. فقط اتركنا نذهب.

صرخت المرأة من وسط دموعها التي اختلطت بأصباغ وجهها، ليقف بدوي منتفشًا بيننا كأنه عملاق قادر على سحق ضحاياه في لحظة بينما يتوسلون إليه أن يرحمهم.. وقف للحظات متفكرًا:

- تعالي إلى هنا وقبّلي يدي، ربما ساعتها أفكر في تركككما.

هرولت المرأة ونزلت تقبل يد الأمين بدوي فوق جسد زوجها الهامد، بينما يحاول منعها بغمغمات متأوهة.

- هل ترى هذا أيها المخنث؟ زوجتك تحب الرجال الحق مثلي.

أخرج سلاحه من جرابه وأعطاه لي آمرًا:

- وجّه السلاح إلى هذا الكلب، وإن فكر في الحراك أطلق عليه النار.

أخذت سلاحه بيد مرتعشة وفعلت مثلما قال.. لأول مرة في حياتي أشعر أنني مسلوب الإرادة هكذا.. يمسك بدوي بالمرأة في عنف وينظر إليها نظرات تفيض بالشهوة.

- والآن لنفتشك يا جميلة.

يوقفها قبالة السيارة ويتشمم شعرها مغمضًا عينيه.. المرأة تقف في استسلام تنظر إلى زوجها دامعة، بينما بدوي يمرر أصابعه على كتفيها.. يدي ما زالت ترتعش ممسكة بسلاح بدوي.. أنقل نظري بين المرأة والرجل الذي يجاهد للوقوف على قدميه دون نجاح حقيقي.. كلمات أبي الأخيرة بينما هو على فراش موته تتقافز إلى مسامعي.. نظر إلى وجهي بشدة كأنما ينظر إلى داخل روحي قائلاً:

- إياك والظلم يا بُني.. إياك ودعوة المظلوم.

كأنما اخترقت بصيرته الحجب ليرى هذا اليوم ويحذّرني منه.. يضغط بدوي بجسده على المرأة المستسلمة، ويهمس في أذنها بكلمات لم أسمعها.. ينجح الرجل في القيام أخيرًا متشبثًا بباب السيارة المفتوح.. بدوي مغمض العينين ثقيل الأنفاس، بينما ينطلق بركان الغضب في جسد الرجل الذي يغطي الدم وجهه.. يرى امرأته تنتهك أمام عينيه وأرى في عينيه النية للفتك ببدوي.. تتداخل كلمات أبي مع بدوي في عقلي.

- نحن نعرّف الخطأ والصواب، بما يضمن الصالح العام.. نحن القانون.

الرجل الغاضب يطلق صيحة عظيمة لم يأبه لها بدوي.. فجأة أصبح القرار واضحًا جليًا في عقلي.. اختفت ارتعاشة يديّ.. وجهت السلاح في ثقة إلى هدفي وعصرت الزناد لتنطلق رصاصة غطى صوتها على كل الأصوات.

* * *

- ماذا تريد يا بدوي؟

سمعت الصوت الناعس على الطرف الآخر.

- أنا لست بدوي.. أنا محمود السائق يا باشا أتكلم من تليفونه.

- ماذا حدث؟ أين بدوي؟

- لقد قتلت الأمين بدوي وسأذهب لتسليم نفسي الآن في القسم.

أغلقت الخط دون أن أسمع رد الباشا.. نظرت إلى جثة الأمين بدوي وبركة الدماء التي أحاطت به، للمرة الأخيرة، وانطلقت بالسيارة، بينما كلماته تتردد في ثنايا عقلي:

«نحن القانون يا محمود.. دورنا وواجبنا المقدس أن نفرض النظام مهما كان الثمن».

بلياتشو

يذهب رجل إلى الطبيب يشكو من الاكتئاب.. يشكو الحياة القاسية المؤلمة.. يقول إنه يشعر بالوحدة أمام عالم مليء بالتهديدات.. ينصحه الطبيب أن يذهب إلى السيرك فالمهرج العظيم بالياتشي موجود في المدينة هذه الليلة، وهذا قد يساعده.. ينفجر الرجل في البكاء، وعندما يسأله الطبيب عن سبب بكائه قال له من وسط دموعه.. أنا بالياتشي.

Watchmen

- عشر دقائق على بدء العرض.

سمعتها من مدير السيرك الذي يتحرك بعصبية بين الواقفين، فلم أعره انتباهًا.. يأتي كل يوم في نفس الموعد ليزف إلينا النبأ العاجل الذي حفظه الجميع.. العرض سيبدأ بعد عشر دقائق.. أنظر إلى وجهي الذي افتقدته في المرآة التي ثبّتت إليها مصابيح من كل الجوانب.. مرآة متسخة قديمة قِدَم السيرك نفسه، تخفي أكثر مما تظهر.. أمرر أصابعي على سطح المرآة بحنان حول حواف انعكاس وجهي كأنما ألامسني.

* * *

- ابعد عن المرآة يا عليّ؛ لا أستطيع الرؤية منك.

- ولكن يا أبي أنا أريد أن أرى ما بداخل المرآة.

يبتسم فتتسع الضحكة المرسومة على وجهه بالأصباغ ويرفعني إلى الأعلى قائلاً:

- ما بالداخل هو بالضبط ما بالخارج.. اذهب وائتني بالكُرَات الملونة من الصندوق، لا أريد أن أتأخر بسببك مرة أخرى.

* * *

ألطّخ الفرشاة باللون الأحمر لأرسم حدود الابتسامة الصناعية على وجهي وفوق فمي.. أمرر الفرشاة المهترئة على وجهي، فأشعر كأن ثعبانًا يتحرك فوق جلدي.. أرسم ضحكة واسعة تضفي سعادة زائفة على وجهي الكئيب.

* * *

- لماذا ترسم على وجهك هذه الضحكة يا أبي؟

- لأنها تُدخل السعادة على نفوس من يرونها يا علي.

- لكني أحب ابتسامتك الطبيعية أكثر، فهذه المرسومة تخيفني.

ينظر إلى وجهي في حيرة وهو يلملم أدواته.

- لكن الناس يحبون هذه أكثر يا علي.

* * *

أضع الأنف الأحمر الكبير فوق أنفي الدقيق وأتأكد أنه متمسك جيدًا بوجهي.. أضع شعري المستعار ذا الألوان الزاهية وأتأكد من أن شعري الحقيقي لا يظهر.. يسبب لي الحكة كلما وضعته، ولكن لا يهم، فلن يزعجني ذلك الآن.. ألملم أدواتي وأنا ألقي نظرة أخيرة على وجهي لأرى إن فاتتني أي تفاصيل.. يمر منير مصارع الأسود وهو يبتسم لأميرة الراقصة على الحبال ابتسامة قالت الكثير، بينما تنظر هي إليه في افتتان.

* * *

- لكني لا أريد أن أكون بلياتشو!

يمسكني أبي بعصبية حتى لا أحرك وجهي فيفسد مكياجي، قائلاً:

- وماذا تريد أن تصبح يا ابن البلياتشو؟!

- أريد أن أصارع الأسود.

يضحك حتى يسعل ويقول من وسط ضحكاته:

- اسمع جيدًا.. أنت بلياتشو أبًا عن جد، ولن تكون غير ذلك.

- لكني لا أحب ضحكات الناس على شكلي.

- هذا عملنا.. نقع على مؤخراتنا لننتزع الضحكات من أفواههم.. لقد خلقنا ليضحك علينا الناس.

يكمل تلطيخ وجهي بالأصباغ وهو ما زال يضحك، مرددًا في استهزاء:

- مصارع أسود.

* * *

أرتدي ملابسي الملونة وأحكم غلقها فوق جسدي النحيل.. أضع

يديّ داخل القفازين اللذين ورثتهما عن أبي.. رغم اهترائهما فقد أردت شيئًا من رائحته معي.. أردت أن أشعر أنه يمسك بيديّ كما فعل مرارًا في صغري.. أن يقودني إلى وجهتي.. وقعت عيناي على الصندوق القديم المفتوح في ركن الحجرة.. هو كل إرثي من والدي بعدما مات.. أنظر إلى الزجاجة العتيقة التي ربضت في جانب الصندوق على استحياء كأنما تتحاشاني.

* * *

- خذ الزجاجة يا علي واذهب إلى عمك بيومي وأبلغه أن يملأها إلى آخرها هذه المرة.

- لكني لا أحب الذهاب إلى هناك يا أبي، فأنا أخاف من عم بيومي.

يحاول تمالك أعصابه ويجزّ على أسنانه.

- هيا يا عليّ. وعندما يسألك عن المال أبلغه أنني سأحاسبه وأدفع له عندما أراه.

- لكنه نهرني المرة السابقة، وقال إن لم يكن معك مال فلا تأتِ إلى هنا مرة أخرى.

يرتسم السخط على وجهه ويتمتم بصوت خفيض غاضب:

- هذا النصاب مصاص الدماء! ألم يعد عند الناس صبر؟! ألا يكفيه أنني أتحمّل خمره المغشوش الذي سيقتلني قبل أواني.. عليه اللعنة!

* * *

أتحرك أجرجر خطواتي في الكواليس.. أنظر إلى الجميع لعلي أجد من يخيّب أملي ويبادلني النظرات.. أن يشعر أحدهم حتى بوجودي.. أحيانًا أشعر كشبح يسير وسط الأحياء يراهم ولا يرونه.. يرون من خلالي كأني شفاف بلا وزن.. أتعمد أن أصطدم بأحدهم بين الحين والآخر لمجرد أن أثبت لنفسي أني ما زلت أنتمي إلى عالم الأحياء.

* * *

- ما هذا الذي في يدك يا علي؟

- لا شيء، إنها مجرد زهرة وجدتها في الطريق وأنا قادم من المدرسة.

ينظر إليّ أبي في تشكك.. ينظر إليّ تلك النظرة التي تسبر أغوار روحي ذاتها.. يلاحظ توتري.

- قل الحق يا علي.. أنت لم تجد هذه الزهرة.. أنت إما أخذتها من إحداهن أو تخطط لإعطائها لإحداهن.

أتوقف للحظات أحاول تكوين رد مقنع.. اخترت أن أتمادى في كذبتي، فقلت وقد بدأت كفاي في التعرق كعادتي عندما أتوتر:

- لا، لقد وجدتها في الشارع.

- إذن ضعها تحت قدمك ودس عليها، إذا كنت فعلاً وجدتها كما تقول.

أنظر إليه في سخط مكتوم للحظات.. أرميها أمامي وقلبي يتقطع.. أرفع قدمي وأنا أنظر إلى عينيه فيسبقني إليها، يدوس عليها بكل غِلّ حتى ساواها بالأرض.

* * *

لم أعرف الحب يومًا إلا في بعض المحاولات الصبيانية، تحطّمت دائمًا على الجدار الفولاذي الذي فرضه أبي من حولي.. كان يمنعني من أي محاولة للاتصال بالنساء.. قاومته كثيرًا في البداية، ولكني استسلمت بعد عدة محاولات فاشلة لأمتنع عن حتى محاولة المحاولة.. حتى بعدما تركني ومات إثر تليّف كبده، ظل جداره مُقامًا من حولي.. يحبسني.

* * *

- أعطني الزجاجة من عندك يا علي.

يقولها بلسان التَوَى إثر تشبّع جسده بالخمر الرخيص.. أنظر إليه مشفقًا.

- ألا يكفي ما شربته اليوم يا أبي؟

- لا.. لا يكفي.. أنا أستطيع أن أشرب ملء البحر دون أن أتأثر.

يسكت للحظات ثم يتذكر أنه كان يتكلم، فيكمل:

- ثم توقف عن لعب دور أبي.. إنت هنا الابن وأنا الأب.. هيا أعطني هذه الزجاجة الملعونة.

أحملها بتقزز كأني أحمل ثعبانًا سامًا.. أقف مقابلاً له دون حراك، أمنع نفسي من تكسير الزجاجة القذرة للمرة الألف.. أعطيها له فيمسك يدي بقوة، قائلاً:

- إياك والنساء يا علي!

يأخذ رشفة من الزجاجة دون أن يفلتني، ثم يكمل:

- يجعلنك تظن أنك قد ملكت الدنيا بين يديك، وفي اللحظة التالية يأخذنها منك لتتحول حياتك إلى سراب.

رشفة أخرى زادت من التواء لسانه، إذ أكمل:

- سيتركنك في النهاية لأجل رجل آخر أقوى وأغنى منك.. سيتركنك لأجل من يظنن أنه أفضل منك.. سيتركن فراغًا في قلبك وستحاول ملأه بأي شيء، فلن تجد إلا الخمر الرخيص.

يفلت يدي أخيرًا ويرفع إصبعه، مهددًا مرة أخرى:

- إياك والنساء يا علي!

* * *

أقف خلف الستار الضخم الفاصل بين الكواليس وساحة السيرك.. أغمض عينيّ وأحبس أنفاسي.. أستمع للأصوات القادمة من الخارج للحظات.. إنها ليلة رأس السنة ولا بد أن المقاعد مكتظة بالخارج.. تملأ الأصوات المتداخلة أذنيّ، يتخللها تصفيق شديد بين الحين والآخر.. كم وقفت هنا أتخيلهم يصفقون من أجلي! كم من مرة انحنيت أمام الستار المغلق ردًا لتحية جمهوري الخيالي! لا بد أن مروان ونجلاء في ملابسهما الأنيقة يتأرجحان الآن على الحبال، بينما كل الأنظار شاخصة

إلى الأعلى في انبهار.. أفتح عينيّ مُطلقًا زفرة وأتسلل من وراء الستار إلى الساحة.

* * *

- ولد يا علي.. انزل من عندك الآن.

نظرت للأسفل فوجدت أبي يكاد الشرر يتطاير من عينيه.. ألقيت نظرة أخيرة على حركاتهم المنمّقة وبدأت نزولي حتى وقفت أمام أبي مطأطأ الرأس.. أخذني من ذراعي بشدة دون كلمة واحدة، حتى وصلنا إلى غرفته الفارغة في الكواليس.. أغلق الباب وانفجر في وجهي.

- هل جننت؟ ماذا كنت تفعل؟

- كنت فقط أريد أن ألقي نظرة من قريب.. ثم أن شبكة الأمان كانت منصوبة، ففكرت.

- فكرت فيمَ؟! في أن تتعلم التأرجح على الحبال؟!

للمرة الأولى في حياتي قررت أن أواجهه.. قضيت حياتي في الفرار ولم يفدني هذا إلى الآن. رفعت عينيّ في وجهه صارخًا:

- ولم لا؟! نعم أريد أن أتعلم.

تفاجأ من مواجهتي له بهذا الشكل الذي لم يرَه من قبل، ولكنه قابل صراخي بأشد منه.

- لِمَ؟ لتصبح واحدًا من هؤلاء المتأنقين المنافقين؟ لتسرق زوجة بلياتشو آخر بكلامك المعسول وابتساماتك الساحرة؟ لتجعل من قلبه وحياته حطامًا؟

لم ينتظر مني ردًا، فأكمل:

- ربما هذا البلياتشو الآخر لن يكون ضعيفًا أو جبانًا.. ربما عندما سيراك معها على فراشه لن يستدير إلى الناحية الأخرى ويُطلّقها في هدوء.. ربما سيفصل رأسك عن جسدك هذه المرة ويتراقص ضاحكًا فوق جثتك.. هل هذا ما تريد؟

* * *

الظلام يُغلّف الساحة، فكل الإضاءة موجهة إلى الحبال التي تتدلى من السقف العالي.. أتسلل في هدوء إلى أقصى الساحة متفاديًا أن يراني أحدهم.. أتشبث بيديّ إلى السلم العمودي الذي يمتد إلى السماء.. أضع قدمًا وراء الأخرى ماضيًا في الصعود إلى المنصة العالية.. أصعد بأقصى سرعة سمح بها حذائي المبالغ في حجمه.. عيناي معلقة بالمنصة العريضة لا تتحولان عنها.. شهقة من الجمهور إذ تقذف نجلاء نفسها في الهواء لتقع بين يديّ مروان، يتبعها تصفيق حاد.. أصل إلى المنصة فأقف عليها مواجهًا جمهور الناس الذين اتجهت أنظارهم إلى ناحيتي.. استشعرت الحيرة في أعينهم يتساءلون عن ماهية هذه الفقرة.. توقفت للحظات أستمتع باندهاشهم.. رفعت يديّ في سرعة إلى جانبيّ رأسي في اندهاش مصطنع، فانطلقت ضحكاتهم تملأ المكان.. درت حول نفسي في سرعة وأنا أنظر حولي في ارتباك، فزادت الضحكات.. وقفت أنظر إلى المقاعد الممتلئة بشتى أشكال البشر على مدى بصري.. أغمضت جفنيّ وفردت ذراعيّ إلى جانبيّ عن آخرهما كأني أحتضن ضحكاتهم.. ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجهي ضاعفت من حجم تلك المرسومة هناك.. ملأت أذنيّ بأصوات ضحكاتهم ثم خطوت لأقفز إلى الأرض.

فارس

هـذه المدينـة تخـاف منـي، فقـد رأيـت وجههـا الحقيقـي.. الشـوارع مـا هـي إلا قنـوات ممتـدة، وهـذه القنـوات مملـوءة بالـدم، وعندمـا تنفجـر المجاريـر في النهايـة كل الهـوام سـيغرقون.. القـذارة المتراكمـة مـن كل الجنـس والقتـل سـتعلو لتغطيهـم حتـى أوسـاطهم، وكل العاهـرات والساسـة سـينظرون إلى الأعـلى صارخـين «أنقذنـا»، وأنـا سـأهمس.. لا.

Watchmen

القاعده الأولى: **أنت لست منهم**.

سحقًا للمدينة تتغذى على معاناتنا.. تنتعش بمخاوفنا.. تقتل إنسانيتنا لتجرّنا إلى الهاوية.. سحقًا لشهواتنا وأهوائنا وشياطيننا التي تتآمر مع المدينة وتوقعنا في الخطيئة.. سحقًا لمدينة الخطيئة.

هكذا فكّرت جالسًا في شرفة شقتي أشاهد الشارع من تحتي.. أستمتع بلسعة البرودة في الأجواء، بينما يداي ملتفة حول قدح ساخن من الشاي.. أنظر إلى الشارع مرة أخرى وملامح السخط ترتسم على وجهي.. أنظر إليهم يتحركون بعضهم في تؤدة كأنما لديه كل الوقت في العالم، والبعض الآخر يمرق مسرعًا كأنما يهرب من حتفه، ولكن ما لا يعلمونه لجهلهم أنهم جميعًا يسيرون نحو مصيرهم المحتوم، مهما كانت سرعتهم فالنهاية معروفة.. هذه المدينة محكوم عليها بالهلاك، علمت هذا منذ زمن بعيد، ولهذا اتخذت طريقي الذي اخترت.. أنظر إليهم يتحركون فكأنما يعومون وسط القذارة، قذارة تراكمت طبقات فوق طبقات على مر السنين، لتصبح في النهاية أصلب من الصخر.. الكل يتحرك في اتجاه الثقب الأسود دون أن يبدو عليهم الجزع.. دون أن يخرج من بينهم عاقل يعيدهم عن الطريق.. الفساد يستشري حولهم في الهواء الذي يتنفسونه دون أن يقضّ ذلك مضاجعهم.. يطأطؤون رؤوسهم بحثًا عن لقيمات من الخبز على الأرض دون أن ينظروا إلى أي مصير هم سائرون.. دون أن يدركوا ماذا يفعلون بسلبيتهم وأنانيتهم.. دون أن يروا الخطيئة التي تحيط بهم من كل مكان حتى أصبحوا جزءًا منها.. هذه المدينة محكومة بالهلاك.. كل سيرهم وجريهم وملاحقتهم الرزق ليس إلا مجرد عبث لن يفيدهم شيئًا في النهاية، كالمحكوم عليه بالإعدام مهما تحرك داخل الزنزانة فلن يفيده ذاك شيئًا.. عندما يحين

الوقت سيفهمون، سيعلم الجميع إلى أي مصير قادوا أنفسهم.. حتى هؤلاء الذين رفضوا الاشتراك، الذين قرروا أن فعل لا شيء أفضل من الانضمام للقطيع.. سيعلمون أنهم بسلبيتهم قد أفسحوا الطريق لتوغل الخطيئة داخل الآخرين.. سيعلم الجميع في النهاية، ولكن بعد فوات الأوان.

أرشف من الشاي رشفة جديدة باستمتاع.. أشعر بالسائل الساخن كأنما يذيب الثلج الذي تراكم فوق أعضائي من برودة الجو.. أغمض عينيّ وأسمح للصخب بالدخول إلى مسامعي، ظننت أن الوضع سيتغير إبّان الثورة مثل كثيرين، ولكن كم كنت مخطئًا! لم تبرز الثورة أحسن ما فينا إلا لأيام ظننت أننا انتصرنا على المدينة ولكن هيهات.. التفّ العنف الكامن بداخلنا كالثعبان على كل ما كان جيدًا في أنفسنا.. ظهر الحيوان المحبوس بالداخل بغرائزه الأولية.. انفجر كل العنف بداخلنا لتتلطخ الأرض بالدماء في كل مكان.. جنون يقود جنونًا حتى تحوّلت المدينة إلى غابة تأكل كل ضعيف تقع يدها عليه.. كثرت المسوخ وخرج الوحوش من الجحور.. تفشّى السُعار حتى أصاب الجميع.. تحوّل القتلى إلى مجرد رقم في نشرات الأخبار لا يزعجنا إلا إذا زاد عن خانتين. هل ملّت المدينة من حالة اللا سلم لا حرب التي ظللنا عليها لسنوات فقررت تحريك الأمور بعض الشيء وقادت الناس للثورة، لن أعلم أبدًا. أنهيت الشاي فتحركت إلى الداخل جالسًا أمام التلفاز الذي يبث تلك القناة الإخبارية.. قتلى وأشلاء في تفجير أمام مدرسة، ذبح شاب بسبب مشاجرة على فتاة، اغتصاب طفلة في الخامسة وإلقاؤها من سطح العمارة لتغطية آثار الجريمة، قتل زوج على يد زوجته وعشيقها.. جلست بتراخٍ أشاهد التفاصيل في هدوء.. الأخبار هي الطريقة التي يصرخ بها العالم، ينبهنا في كل لحظة إلى مستوى جديد من الانحطاط انغرست فيه أقدامنا.. لا أسمعها لأشعر بشيء بل أسمعها لكيلا أشعر

بـشيء في الحقيقـة.. أتذكـر عندمـا كانـت أخبـار أقـل مـن هـذه تفزعنـي، كنـت أشـعر بـالألم للضحيـة والغضـب مـن الجـاني.. زادت بشـاعة الأخبـار ومعهـا قـلّ إحسـاسي حتـى انعـدم في النهايـة.. اليـوم لا أشـعر بـشيء ناحيـة كل مـن الجـاني والضحيـة.. كلـما زادت الأخبـار بشـاعة زاد الخـدر والتنميـل الـذي يتملـك قلبـي.. هـذا الخـدر الـذي يجعلنـي أسـتطيع فعـل كل مـا أريد أن أفعـل.. يملـؤني بالـلا مبـالاة تجـاه المدينـة وقاطنيهـا، فـلا أشـعر معهـم بتعاطـف أو شـفقة.

قطـع أفـكاري صـوت جـرس البـاب فقمـت مـن مـكاني متكاسـلاً.. فتحـت البـاب فوجـدت عمـي مكفهـر الوجـه كالعـادة.. ابتسـمت في لا مبـالاة، قائلاً:

- أهلاً يا عمي، تفضل.

رد عليّ بامتعاض:

- لا لـن أدخـل مثـل كل مـرة.. لقـد أتيتـك بإيـراد أرضكـم عـن سـتة أشـهر المنصرمـة، فخـذه ودعنـي أذهـب في طريقـي.

سلمني ظرفًا مغلقًا، فأخذته من بين يديه في استخفاف.

- لمـاذا لم تبعـث بـه أحدهـم مـن المحـل عنـدك مـا دمـت لا تحـب المجـيء لهـذه الدرجـة؟

- لأنها أمانة في عنقي ولا بد أن أؤديها بنفسي.

شـدّد عـلى كلمـة أمانـة في وسـط كلماتـه، فابتسـمت في نفـسي.. هـذا الأمـين لم يعطنـي جـزءًا مـن مـيراثي إلا بعـد مشـادات اسـتمرت لشـهور.. كـم عايـرني أنـه آواني وأطعمنـي أنـا وأخـي الصغـير بعـد مـوت أبينـا! قصـدت اسـتفزازه، فقلـت متلمّسًـا الظـرف بـين يـدي.

- أليس المبلغ بقليل هذه المرة؟

نظـر إلى عينـيّ في غضـب وحـاول أن يتفـوّه بـشيء ولكنـه آثـر الرحيـل دون كلام، فغـادر في سرعـة.. هـذا اللـص الـذي يتنكر في رداء العفـة والطهارة.. يمـنّ عـليّ أنـا وأخـي ببعـض الأمـوال ظنًـا منـه أنـه يـؤدي الأمانـة.. ينـام

مستريحًا في فراشه بينما يعلم أنه لص أكل مال اليتامى دون أن يجفل.. مجرد إفراز جديد من إفرازات المدينة.. باع معظم الأرض التي تركها أبي كما عرفت بنفسي ليضم ثمنها إلى ممتلكاته، وعندما واجهته اتهمني بنكران الجميل وعايرني بكل النقود التي أنفقها على دراستي وتدريباتي في أربع سنوات.. عندما طالبته بشقة أبي جنّ جنونه، إذ كان يؤجرها للعرب ويجني من ورائها الكثير.. كم أستمتع عندما أراه! إذ أرى الخجل متواريًا في عينيه وراء الغضب الذي يمثله.. لا بد أنه يتنفس الصعداء كلما أنهى الزيارة التي يمنّ بها علينا مرتين في السنة.. يعلم أني أعلم أنه لص، وهذا يشعره كأنه فأر في مصيدة، كلما جاء إلى بابي تشدّق وشدّد على كلمات مثل الأمانة والوفاء، كأنه يدفع الجرم الثابت عن نفسه.. كم أحب زياراته! تشعرني بالانتشاء.. كلما نظرت إليه شعرت أني أنظر إلى المدينة في عينيها الميتتين.. عينيها الباردتين المشقوقتين بالطول كالأفاعي.. وقفت على الباب المفتوح للحظات ثم استدرت عائدًا إلى الداخل أتمتم: ألا سحقًا لمدينة الخطاة!

* * *

القاعدة الثانية: **لا تفصح أبدًا عن هويتك الحقيقية.**

اسمي أكرم.

اسمي حسام.

اسمي علاء.

اسمي محمد.

اسمي لا شأن لك به.

كلها إجابات لمن يسألني عن اسمي.. لا أفصح أبدًا عن اسمي الحقيقي، هذه هي قواعد عالمي وحياتي.. لا تهم الأسماء فيما أقوم به.. لا يهم تاريخ عائلتي أو درجتي العلمية، كل ما يهم هو أن أنفّذ المهمة واتنقد أجرى دون أسئلة أخرى.

أعـود لمشـاهدة التلفـاز مـرة أخـرى بعـد أن أغلقـت البـاب، ولم ألبـث أن جلسـت خمـس دقائـق حتـى رن جـرس البـاب مـرة أخـرى.. قمـت لأفتـح لأجـد في وجهـي عـادل بألفاظـه البذيئـة وشـكله اللـزج، أشرت إليـه أن يدخل دون حتـى أن ألقـي عليـه السـلام.. بـدا ذلـك مبتـذلاً جـدًا، خصوصًـا مـع عـادل الـذي لا يـأتي إلا لتعكـير السـلام.. تسـاءلت في داخـلي كيـف يبـدو مقـززًا كل مـرة عـن سـابقتها! هـذه مهـارة تسـتحق الدراسـة.. نظـرت إليـه متقـززًا وسـألته بنفـاد صـبر:

- ماذا جاء بك؟ ألم أقل لك أن تتصل وأنا سآتي إليك؟

مط شفتيه قائلاً بطريقته البذيئة:

- جئتـك لأن الموضـوع لا يحتـاج تأخـيرًا، ولأني لا أفهـم موضـوع خوفـك مـن قدومـي إليـك.

ابتسـم بشراسـة كـما هـي عادتـه قبـل أن يلقـي واحـدة مـن دعاباتـه البذيئـة:

- هل تخاف أن يعلم الناس بعلاقتنا أيتها الفتاة؟

- انتقِ ألفاظك.

- لِمَ.. هل تخجلين يا فتاة؟

لم أعـد أحتمـل؛ سـأقتله ثـم أفكـر في العواقـب بعـد ذلـك.. يـدي تعتـصر رقبتـه في لمـح البـصر.

- حسنًا حسنًا، اتركني؛ سأختنق.

يسـتحق القتـل ألفـي مـرة، ولكنـي أحتـاج إليـه للأسـف، أفلتـه ليقـع محـاولاً التقـاط أنفاسـه، قائـلاً مـن وسـط لهاثـه:

- سريع ومتحفز دائمًا كعهدي بك.

قـام يسـند عـلى يديـه وقدميـه كالكلـب.. ابتسـمت لمنظـره وقاومـت رغبتـي في ركلـه في معدتـه.

- هيا اختصر، فليس لديّ الليل بأكمله يا...

أتبعت كلماتي بسبّه مناسبة ابتلعها كعادته دون أن يجفل.. أحيانًا أحس أن سبّ عادل يفرحه، لذلك لا أفعلها إلا مضطرًا.

- ببساطة عملية جديدة.. غاية في البساطة، كالعادة.

ثم وكأنه تذكّر:

- طبعًا مع التأديب، لا تنسَ.

- ومن هو المطلوب؟

أخرج تلك الورقة المكتوبة بعناية من جيبه.. دائمًا ما يحيرني عادل بشكله وألفاظه وتناقضهما، مع اهتمامه الشديد بعمله.

- لا أسماء كالعادة.. كل ما هو مطلوب مكتوب عندك، ونفس المبلغ، مع عمولتي بالطبع.

ابتسم ليكشف عن ألعن أسنان قد تراها في حياتك.. لتختفي ابتسامته فجأة ناظرًا إلى نقطة ما، نظرت لأجده أخي مستيقظًا وينظر إليه في كُره واضح.

- أما زال أخوك معك؟

اكتفيت بأن رمقته بنظرة ازدراء جانبية، محوتها سريعًا، لتحل محلها ابتسامة، مشيرًا إلى أخي كي يجلس بجانبي.

- أحيانًا أحس أنه يسمعنا.

- كيف يسمعك يا أحمق.. إنه لا يسمع ولا يتكلم منذ أن كان سنه عشر سنوات.

- لا أعلم.. أحيانًا أخاف من نظراته. هل عندك من شيء يؤكل؟

قام دون أن أتكلم إلى المطبخ.. الحياء صفة لا يمتاز بها عادل بأي شكل.. التفتّ إلى أخي الجالس ليشير لي ببعض الإشارات، معناها:

- عمل جديد؟

أشرت له أن نعم، ليرد عليّ بإشارة إلى قلبه، أعقبها بإشارة إلى رأسه، معناها:

- أخاف عليك.

- لا تخف أبدًا.

أعقبت إشاراتي بابتسامة قلّما ملأت وجهي.

- لا يرتاح قلبي إلى هذا الشخص الذي تعمل معه.

أشار إلى عادل الذي كان يمسك بتفاحة يقضم منها بوحشية.. نظرت إليه في استغراب لألتفت لأخي، مشيرًا إليه:

- إنه نكرة.. لا أحد، فلا تخف منه.

نظر إليّ في تردد، ثم أشار إلى قلبه.

- أنا خائف.

- لا تخف، فما دام بداخل صدري نفس يتردد لن أترك مكروهًا يصيبك أبدًا.

خرج عادل من المطبخ قائلاً بفم ممتلئ:

- ألا يوجد عندك طعام آخر؟

* * *

القاعدة الثالثة: **أنت لست بطلاً**

منذ صغري وأنا دائمًا ما أحسست بالاختلاف عن الآخرين.. كنت أشعر أني مقدّر لي أن أصبح بطلاً خارقًا كأبطال القصص المصوّرة، ربما لهذا أحببت الألعاب القتالية.. ربما كان هذا السبب الوحيد لتفوقي الشديد فيها.. كنت أفارق التدريبات كأني أفارق الماء، ولا أشعر بنفسي إلا عندما أرجع مرة أخرى.. كنت طفلاً ظن أن الحياة كالقصص المصورة، وظن أن الأبطال يملؤون الدنيا من حوله ليقضوا على الأشرار الذين لا همّ لهم سوى السيطرة على العالم.. حتى شاو الصيني رأى فيّ شيئًا مختلفًا.. ربما رأى في شغفي للقتال التلميذ الذي ظل يبحث عنه.. ابتسمت وأنا أتذكر شاو الذي جاء إلى أبي بعد أن شاهد مباراتي لبطولة الجمهورية في الكونج فو، أثنى على قتالي وأدّى لي التحية، وترك بطاقته التي كتب

فيها بإنجليزية أنيقة «مدرب فنون قتالية».. شاو الذي كان مفتاحي لعالم لم أظنه موجودًا من الأساس.. كم كان سيخيّب أمله فيّ الآن.. كان سينظر إليّ كعادته بعينيه الضيقتين في ضيق وينصرف دون كلمات، ولكن ما شأنه؟ لقد انصرف عني مثل الجميع، لملم حاجياته وسافر إلى بلاده وبعث برسالة مبهمة يشكرني فيها على مجهودي في التدريب ويتمنى لي التوفيق.. لقد اخترت طريقي بإرادتي الحرة، وليذهب كل من لا يحب ذلك إلى الجحيم.

قفزت إلى ذهني ذكرى مقابلتي الأولى بعادل، أول ما وقعت عيناي على ملابس العمل السوداء المعلقة في دولابي الموارب، ربما لو لم أره تلك الليلة لما كنت ارتديتها أبدًا. كنت عائدًا من عند بعض الأصدقاء في ساعة متأخرة من الليل.. كانت ليلة رأس السنة وانطلقت في السهر محتفلاً ربما لتنفيس بعض غضبي.. إذ أسير في الشارع وجدت ذلك اللص يكيل لعادل اللكمات والضربات.. ربما لو كنت أعلم ما أعلمه الآن عن عادل لكنت تركت اللص يقتله إن شاء، ولكني كنت أظن نفسي بطلاً وقتها.. تحركت إلى الشارع شبه المظلم في خفّة لأقف على بُعد أمتار قليلة من المشهد وأقول بصوت هادئ:

- أتعلم؟ لم أحب اللصوص أبدًا.

انتبه لوجودي، فأجفل ثم استدار ووقف ينظر إليّ في بلاهة، فسألته في استغراب:

- هل ستقف محدقًا فحسب؟

- ماذا تريد؟

- حسنًا.. سأقولها مرة واحدة وبأبطأ طريقة ممكنة لتفهمها.. اذهب الآن ولن أفعل لك شيئًا، أو هاجمني فتنتهي ممدًا على الأرض بذراع مكسورة.

ربما لم يسمعني بسبب كل المخدّر الذي تعاطاه قبل أن يضرب

الشوارع باحثًا عن ضحية، إذ لم أكد أنتهي من جملتي إلا ووجدته يجري ناحيتي حاملاً مطواته.. تحركت إلى الجانب فجأة فاختل توازنه ووقع على الأرض ليقوم من فوره مواجهًا إياي.. يدور من حولي في يده مطواته يحركها في دوائر كأي بلطجي يحترم نفسه.. يبحث عن أول نقطة ضعف لينقضّ عليها وينهي الأمر، بينما أنا أنظر إلى يده في ثبات وأزفر في هدوء كما علمني شاو.. أستدعي كل طاقتي الكامنة وأصفي ذهني من كل شيء.. اشاهده يرجع ذراعه إلى الوراء مسددًا مطواته إلى هدفها.. أزفر مرة أخرى وأتوحّد مع كل ما حولي.. أسمع دقات قلبه تتسارع.. أشعر بعرقه يبدأ في التصبب رغم البرد.. الوقت يبطئ، يتحول كل شيء إلى مشهد بالتصوير البطيء، وفي أقل من ثانية حددت هدفي ودرست كل الاحتمالات.. انقضضت على يده في سرعة ولويتها إلى خارج جسده، لأسمع صوت تهشم العظام، ثم عاد كل شيء إلى سرعته الطبيعية.. اللص يصرخ في ألم، بينما عادل الذي رأى كل شيء يقف فاتحًا فاه في ذهول.. وقفت أمام اللص للحظات أتأكد من انتهاء حماسته للقتال، بينما هو يسبّ ويُطلق اللعنات بأعلى صوت ممكن بين تأوهاته، ممسكًا بذراعه.. انتبهت إلى عادل الذي أخذته حماسة الثأر وبدأ في توجيه بعض الركلات للرجل الراقد على الأرض، الذي لا بد أن جسده الممتلئ بالترامادول لم يشعر بأي منها.

- وفّر مجهودك، فلن تشعره بأسوأ مما هو فيه.

قلتها له في محاولة لثنيه عما يفعل، فردّ عليّ بصوت لاهث:

- لن أتركه قبل أن أقتله.

بدا لي من لهاثه وعرقه الذي تصبب أن عادل سيموت بالسكتة القلبية، قبل أن يشعر اللص بشيء، استدرت مكملاً طريقي وأنا أقول.

- حسنًا، افعل ما تحب.

استوقفني قائلاً:

- انتظر.

أودعه ركلة أخيرة في معدته، وأتى ليقف في مقابلتي.

- أنا آسف؛ أخذتني حماسة الثأر، ولم أشكرك على ما فعلته من أجلي.

قلت كأي بطل قصص مصوّرة:

- لا داعٍ للشكر، فلم أفعل إلا الواجب.

- لقد أنقذتني من القتل.. دعني أكافئك على الأقل.

كنت أتفادى وجودي مع عمي وفي البيت في ذاك الوقت، فقد كان عراك الميراث ما زال في أوجّه، ربما لهذا قبلت دعوته على العشاء في ذلك المطعم الفاخر، ربما كنت أبحث يومها عن طريق للهروب.

* * *

القاعدة الرابعة: **كلهم ذئاب فلا تأخذنك بأحدهم شفقة.**

«كلهم ذئاب».. هكذا حدثت نفسي وأنا أقود السيارة متوجهًا إلى هدفي، «دعهم يأكلون بعضهم بعضًا واخرج من وسطهم سالمًا؛ كلهم نصابون، مداهنون، قتلة وتجار مخدرات وسلاح.. يغترفون من أموال الناس ليضيفوا إلى أرصدتهم المكتظة ولا يقيمون للعدالة أو للقانون وزنًا، لا يعترف أحدهم إلا بقانون واحد.. القوة».

كان عادل كريمًا جدًا معي، وضع أمامي صنوفًا من الطعام لم أعلم حتى بوجودها، وعندما عرض عليّ الخمر لم أمانع على سبيل التجربة.. كان يضع لي السم في العسل بالمعنى الحرفي للكلمة. بدأ في الكلام بينما انهمكت في الطعام:

- أعرفك بنفسي، أنا عادل وأعمل...

فكر قليلاً ثم استطرد:

- سمسار.

- سمسار عقارات وأراض وهذه الأشياء؟

قلتها ثم رجعت لأملأ فمي بالطعام مرة أخرى، فهز رأسه يمينًا ويسارًا قائلاً:

- ليس بالضبط.. أنا سمسار أشمل من هذا.. يمكنك القول إنني سمسار لكل شيء.

- لا أفهم.

- حسنًا، إن أردت أن تصلي علّمتك الوضوء.. إن أردت أن تشرب خمرًا حضّرت لك كأسًا.. إن أردت أن تشتري شيئًا.. أي شيء، كنت لك عونًا.. إن أردت أن تؤدب أحدهم كنت عصاك التي تضرب بها.

أكمل مبتسمًا:

- ربما لن أضرب أحدًا كما تعلم، ولكني أجد الرجال القادرين على فعل ذلك بكل سهولة.

هززت رأسي غير عابئ، فسألني:

- وأنت، ماذا تفعل في حياتك؟

- لا شيء.. السنة الأخيرة في الجامعة.. البطالة في الغالب.. لا أعلم، ربما سأفكر في شيء.

رجع إلى الوراء للحظات وأشعل سيجارة في هدوء، وهو ينظر إلى وجهي في اهتمام، قائلاً:

- ربما لديّ عمل لك.

- هل تريدني أن أضرب أحدًا من أجلك؟

قلتها بينما أضحك في سخرية، فأجاب في سرعة:

- ولمَ لا؟!

أنهيت طعامي في سرعة وأجبته في جدية:

- لا؛ أنا لا أفعل هذه الأشياء.

- لا تخبرني تلك الأشياء عن العدالة والقانون والمثل العليا وهذه الخيالات.. العالم يعج بالأوغاد يا صديقي، وأنا لديّ مبدأ واحد، إن

لم تستطع مواجهتهم فانضم إليهم أو كن سمسارًا بينهم واخرج بأكبر ربح ممكن.. أرجوك لا تتظاهر بالبراءة والصدمة، فأنا أعلم أنك لست كذلك.. أنا أرى فيك شيئًا مختلفًا، لست على غرار هؤلاء الثيران الذين تعج بهم الطرقات.. صدقني أنت مختلف وأنا أرى الرغبة في عينيك أن تصبح شيئًا مهمًا، ومعي ستفعل.

ابتسم ابتسامة لزجة ليستطرد:

- أنا أقدّم إليك الفرصة لتصبح من السادة.

- ولكني سأكون كلب حراسة في تلك الحالة.

- كلب حراسة وتعيش في قصر أفضل بكثير من بطل بلا منزل أو نقود.

ربما كانت الخمر قد بدأت تلعب برأسي ولكن بدا كلامه مقنعًا بالفعل.. ربما كان غضبي من عمي وهروب شاو الذي تلى موت أبي قد تجمعوا لتزيين الأمر في عينيّ.. قد عشت حياتي بالكامل أحلم أن أكون بطلاً كالقصص المصورة، دون أن أفكر في احتمالية أن أصبح شرير القصة.. الحق أن الأشرار يبدون أكثر أناقة وجاهًا، يملكون الأموال والنساء، بينما البطل يكافح لتأمين الوجبة التالية.. ينام الأشرار ملء أعينهم بينما البطل يسهد الليالي في الطرقات يبحث عن اللصوص وقطاع الطرق.. عادل كان محقًا في شيء واحد، العالم يعج بالأوغاد بالفعل، أغلبهم أجبر على هذا الطريق بينما القلة يعطون فرصة مثل فرصتي.. لقد كبرت على أحلام الأطفال والقصص المصورة، واصطدمت على صخرة الحياة مرات بعد مرات.

قطع عليّ أفكاري قائلاً:

- ما قولك الآن؟

- دعني أفكر بعض الوقت.

ابتسم في انتصار وأخرج بطاقة من جيبه عليها رقم تليفونه، قائلاً:

- فكّر كما تشاء واتصل بي إن وافقت.. ما اسمك بالمناسبة؟

- اسمي.. اسمي علاء.

حسمت الموضوع في يومها، وقابلته بعدها بأيام ليعلمني طريقة عمله.. العملية تبدأ به، سيأتيه أحدهم عن طريق عميل آخر، فأهم شيء في عمله هو السريّة.. سيأتيه باكيًا مولولاً يحكي عن ذلك اللص الذي أخذ أمواله وصفقاته القذرة منه.. يأخذ منه المعلومات، يوصلها إليّ ببساطة لأقوم بتأديب الضحية.. ذراع مكسورة، أنف مهشم، أرفف زجاجية متناثرة.. بعدها يأتي دور العملية العكسية.. يظهر هو في حياة الضحية المسكينة بشكل طبيعي مستفسرًا عن سر ذلك الكسر أو تلك الندبة، ليعرض عليه خدماته المتواضعة كما سماها، لنقوم بنفس العملية ولكن بشكل عكسي، لنخرج فائزين من الطرفين.. قال لي يومها بالحرف:

- يا صديقي دعهم يأكلون في بعض ولنخرج منهم ببعض الفتات.

كلهم ذئاب فلا تأخذنك بأحدهم شفقة.. أنف مهشم أو ذراع مكسورة للطرفين يحقق نوعًا من العدالة الشعرية.. أوقفت السيارة أمام توكيل سيارات مشهور ذي مكتب زجاجي ضخم، يجلس فيه هدفي يعد نقوده.. لماذا أغلب أهدافي عندهم توكيلات للسيارات.. سؤال نفضته سريعًا من رأسي لأستعيد تركيزي، مخرجًا سلاحي الذي دائمًا ما أعتزّ به وأعتبره رفيق دربي.. عصاي الحديدية التي عكست على جانب وجهي انعكاس ضوء بعيد، لأتوجه إلى الباب في تؤدة.. ربما قررت أن أصبح شرير القصة، ولكن كل أهدافي هم أكثر شرًا مني، ألا يجعلني هذا نوعًا ما بطلاً؟

* * *

القاعدة الخامسة: **لا أقنعة، دعهم يرون وجهك، فهم لن يروه طويلاً على كل حال.**

أسير في ملل الأمتار القليلة الفاصلة بيني وبين توكيل السيارات الذي زينت يافطته -التي حملت اسما براقًا- مجموعة من أسماء الماركات العالمية للسيارات.. أسير متمنيًا أن تكون تلك المرة فيها اختلاف ولو بسيط.. دخلت من الباب ليطالعني وجه تلك الموظفة، محاوِلة طرد النوم من عينيها في تلك الساعة المتأخرة من الليل، لتبدأ في سيل من الكلمات الموّجهة:

- أهلاً بك في معرض الدسوقي للسيارات.. شراء أم إيجار حضرتك؟

- أليس الوقت متأخرًا لفتاة مثلك أن تعمل؟

قابلتني بابتسامة قلِقة لترد على سؤالي في دبلوماسية ومداهنة:

- نحن في معرض الدسوقي نخدم حضرتك في كل الأوقات على مدار أربع وعشرين ساعة.

نظرت إليها في استخفاف متحسسًا العصا الحديدية تحت ملابسي.

- جواب خاطئ.

قلتها مخرجًا سلاحي، مستهدفًا أول سيارة في طريقي لأضرب زجاجها الأمامي الذي انفجر بدويٍّ عالٍ، لتنفجر بعده الموظفة في الصراخ بجانب أذني مباشرة، فاستدرت مواجهًا إياها في تساؤل:

- لماذا تصرخين بجانب أذني؟ أتريدين إصابتي بالصمم يا امرأة؟

وقفت تنظر إليّ دون حراك، فأشرت إلى أحد الأركان البعيدة.

- اذهبي إلى هناك واصرخي كما تشائين.

ابتعدت عني لتجري موزّعة صرخاتها في أنحاء المكان، لتخرج من الباب في النهاية ويختفي صوتها رويدًا لأسمع بعدها صوت خطوات تجري في المكان، لأقول محدثًا نفسي:

- ها قد جاءت لجنة الاستقبال.

أرى بعدها مجموعة من الجدران البشرية.. حُلل سوداء.. ذلك الشعر القصير والعضلات المتضخمة، كأنما هناك ماكينة في مكان ما

تصنعهم بالجملة، يقفون أمامي في تردد.. ابتسامة ملأت وجهي لأضرب بعصاي زجاج سيارة أخرى بجانبي، لأعطيهم بعض الحماس لمهاجمتي لينقضّ عليّ أقربهم مطلقًا صرخة قتالية، ليتحول المشهد للتصوير البطيء.. تفاديت قبضته التي تماثل حجم وجهي لأدخل عصاي من تحت ذراعه رافعًا إياه في الهواء بسهولة، لألقيه على أقرب سيارة فيتهشم زجاجها في عنف، ليرجع كل شيء إلى سرعته الطبيعية مرة أخرى وأقف مستمتعًا بنظرة الذهول على وجوههم، قائلاً:

- هل ستنظرون إليّ في انبهار طوال اليوم؟

نفضوا عنهم ذهولهم لينقضّوا عليّ جميعًا، مُطلقين صرخات، منها الرفيع ومنها الغليظ، لأتحرك بينهم في سرعة، متفاديًا ضرباتهم في سهولة وعصاي تعمل فيهم عمل السيف.. ضربة هنا.. ضربة هناك، لأترك كلاً منهم من ورائي بتذكار سيتذكرني به لفتره طويلة.. ألقيت عليهم نظرة متشفية لأرى تلك اللوحة التي صنعتها يداي من الفوضى.. أنظر إلى الواجهة الزجاجية في الدور التالي لأطالع وجه ضحيتي القادمة، الذي ينظر إلى رجاله في انهيار.. أشرت له بعصاي بما معناه أنك أنت القادم.. كم أستمتع بعلامات الرعب عندما ترتسم على وجوههم! يجري في رعب من سلم خلفي إلى الشارع، لأقول محدثًا نفسي في سأم:

- دائمًا ما يفرون، لم لا يقف أحدهم ليواجهني ولو لمرّة؟ جبناء!

توجهت في بطء إلى الشارع من باب الدخول لأراه بجسده البدين يجري ويتعثّر وهو يصرخ في رعب، وأنا أتحرك من ورائه في بطء.. لماذا دائمًا يجرون وأنا أمشي ببطء وفي النهاية ألحق بهم، فعلاً شيء غريب.. يدخل إلى سيارته الفارهة.. يحاول غلق الباب.. ينجح بعد محاولات مضنية في حشر جسده بداخل السيارة محاولاً تشغيلها.. حدّثت نفسي:

- دائمًا لا تعمل السياره من أول مرة.

يحاول تشغيل السيارة فلا تستجيب.. وثبتان لأكون عند السيارة

لأبدأ في تهشيم مصباحها الخلفي بعصاي، لتجحظ عيناه في ذهول محاولاً تشغيل السيارة في غضب.. فتحت باب السيارة لأجرره إلى الخارج وهو يقاوم في استماتة.

- أتفوّت الحفل في منتصفه يا رجل؟

- ماذا؟ ماذا تريد مني؟

ابتسمت مستمتعًا بخوفه.. هؤلاء الخاطئون يخافون أكثر من غيرهم.

- أتريد نقودًا؟ سأعطيك.. سأعطيك.

- أين دوسيه صفقة السيارات الجديدة؟

وكأنما لم يسمعني.

- سأدفع لك أضعاف ما يدفعون لك.

احتد صوتي لأقول في غضب رافعًا عصاي أمام وجهه في تهديد:

- أين الأوراق؟

- في الخزانة داخل المعرض.. إنها مفتوحة.. أرجوك لا تقتلني.

ضربة وجّهتها إلى وجهه ليسقط فاقدًا الوعي.

- أشكرك لتعاونك معنا.

هؤلاء الجبناء بأقنعة الوحوش.. كم أكرههم!

* * *

القاعدة السادسة: **لا أسئلة.**

لأكثر من ساعة ظللت ممددًا على الفراش، محدقًا في سقف غرفتي المظلمة، أفكّر في حياتي الحالكة.. كم كنت أتمنى أن تكون حياتي أبسط من ذلك، أسهل من ذلك، أهدأ من ذلك! افكر في ذلك الفراغ العظيم الذي أسميه «حياتي».. كم أشتاق إلى دفء بشري! كم أحتاج إلى شيء يحتويني! إلى شخص أبكي أمامه بلا خجل، كم أشتاق إلى البكاء.. كم أحتاج إلى الحب، ولكن كيف يحب من كان مثلي؟! دماء وجريمة

وعالم ليس مني ولست منه، عالم دخلته بقدميّ ممنيًا نفسي بالأموال والحياة الكريمة.. ظننت لغبائي أني سأتوقف متى وصل رصيدي إلى رقم معين في البنك، ولكن عندما وصلت إلى ذاك الرقم طمعت في المزيد، وبعده المزيد والمزيد.. هل أصبحت أسير ذلك العالم للأبد بلا فكاك؟ هل أصبحت كمن يشرب من البحر كلما شرب أكثر ازداد ظمأه فلا يرتوي أبدًا.. ظننت عند قراري أن الشرير قادر على نبذ الطريق في أي وقت شاء، فمضيت في الطريق الذي كنت أظنني أرى نهايته، ولكن كلما اقتربت من النهاية حتى أصبحت قادرًا على ملامستها.. وجدتها تبتعد عني من جديد.. كيف سينظر لي أخي الصغير عندما يكبر ويعلم ما أفعل؟ لا أظنني سأكون بقادر حتى على النظر إلى وجهه.. بعض الأحيان أحسده على عاهته.. لا يسمع شيئًا من أكاذيب عالمنا.. لا يضطر إلى التفوّه بالتفاهات.. أحيانًا أتخيّله مثل من يمشي تحت الماء، لا يسمع شيئًا ولا يشعر بشيء.. أحيانًا أحسده وأبغض نفسي أني أجرّه إلى عالمي المُعقّد المتشابك.

قطع خواطري جرس الباب، نظرت إلى ساعتي لأجدها تقارب الواحدة صباحًا.. قمت من فراشي ونظرت من العين السحرية فرأيت عادل يقف متوترًا وراء الباب.. وقفت للحظة أسبّ وألعن فيه وفي مقابلاته السوداء، فتحت بعدها الباب في عنف قائلاً في حدة:

- ماذا تريد؟

- يا أخي قل تفضّل مثل باقي الناس ثم اسألني هذا السؤال.

- لا أريدك أن تتفضل، في الحقيقة نبّهتك مرارًا ألا تأتي إلى هنا من الأساس.

- أدخلني فقط ثم دعنا نتكلم.

حشر جسده في فتحة الباب وضغط جسده إلى داخل الشقة، وتحرك في سرعة ليتخذ مجلسًا بينما يدعوني للجلوس بجانبه بابتسامة مداهنة

تزيـن وجهـه.. جلسـت عاقـدًا يـديّ عـلى صـدري دون كلام، فأخـرج مـن جيبـه رزمـة مـن النقـود أعطاهـا لي، قائـلاً:

- هذا نصيبك من العمل السابق.

- ألم تستطع أن تسلم النقود لي في الغد؟

- عندي لك أكثر من النقود.

ثم ضيّق عينيه في خبث وقال:

- عملية جديدة.

- أليس الوقت مبكرًا بعض الشيء للقيام بالعملية العكسية؟!

- لا، هذه عملية مختلفة وتحتاج إلى شخص من نوع خاص.

- مختلفة! مختلفة كيف؟

أخرج ورقة مطوية من جيبه أعطاها لي قائلاً:

- عملية توصيل من بين العنوانين المكتوبين عندك في الورقة.

نظرت إليه في تساؤل، فأضاف منبّهًا:

- بلا أسئلة إضافية.. هذا هو الشرط الأساسي.

تراجعت في مقعدي متعجبًا وسألته:

- ومتى الموعد؟

- في خلال ساعة من الآن ستقوم بالاستلام.

- ولم تستطع أن تعلمني قبلها بوقت كافٍ.

- اهـدأ يـا صديقـي فأنـا لم أعلـم إلا قبـل نصـف سـاعة مـن الآن.. كان سـيقوم بالمهمـة غـيرك ولكـن الغبـي قـاد مخمـورًا وانتهـت بـه الحـال هـو وسـيارته في أحضـان سـيارة نقـل.. النـاس مسـتعدون للدفـع بسـخاء إذا تـم التوصيـل في الميعـاد.

نظـرت إليـه في تشـكك فأخـرج رزمـة جديـدة مـن النقـود وضعهـا أمامي عـلى المنضـدة، قائلاً:

- هذا فقط نصف المال والنصف الآخر بعد التسليم.

زفرت بشدة.

- حسنًا سأقوم بهذا الشيء الذي لا أعلم عنه شيئًا.

- أشكرك يا صديقي لقد أنقذتني اليوم.

- أرجوك توقف عن مناداتي بصديقك.. قلت لك سأفعل الشيء اللعين، فتوقف عن مداهنتي.

- حسنًا، هل عندك من شيء أشربه؟

- اخرج من هذا الباب حالاً وإلا سأدق عنقك.. اخرج.

* * *

القاعدة السابعة: **لا تأخذ مشاعرك الشخصية إلى العمل**

أتحرك في الشوارع بينما ألعن عادل والجو البارد.. ألعن نفسي.. في ليلة كهذه قابلت عادل من خمس سنوات.. اليوم رأس السنة وقد أصبحت أكره هذا اليوم، فإنه يذكّرني دائمًا بما آلت إليه حياتي.. أكره اكتظاظ الشوارع، الاحتفالات التي تنتهي دومًا بالموبقات، الإحساس المزيف بالفرحة الذي ينتاب الأشخاص.. لعبة أخرى من ألاعيب المدينة لدفع الناس إلى الخطيئة بدعوى الاحتفال بالعام الجديد.. أتحرك بين السيارات والمحتفلين متوجهًا إلى عنواني الأول الذي تصادف -لحظّي- أنه ماخور مشهور، كباريه كما يسميه الجميع.. مركز شرور المدينة.. بيت الداء كما أسميه أنا.. كأن هذه الليلة تصرّ أن تسوء أكثر فأكثر.. أزفر في هدوء وأحاول التركيز.. أحاول نسيان كل ما أشعر به وأدع الليلة تمر بسلام.. في عمل مثل عملي لا يسمح لي بالحزن، بالسرور، أو حتى بالغضب.. يجب أن أكون باردًا كلوح الثلج وإلا تأثر حكمي وتركيزي، وهذا كل ما يلزمه الأمر.. لحظة واحدة من الخلل وأتحوّل إلى جثة ملقاة على جانب الطريق.. أتذكر شاو كان دومًا ما يقول:

- اطرد كل الأصوات خارج عقلك.. كن كالماء الساكن ولا تسمح لأفكارك بتعكير صفوك.

كـم أحـب أن أراه الآن في نفـس مـكاني وظـروفي، لأرى كيـف سـيكون كالمـاء السـاكن كـما كان دومًـا يرشـدني.. أتنفـس بعمـق مـرة أخـرى وأواصـل القيـادة متمنيًـا أن تنتهـي تلـك الليلـة عـلى خـير.

دقائـق قليلـة ووصلـت إلى المـكان الـذي أحـاط بـه حائـط سـميك مـن كل الجهـات، بعـد أن تكـرر الهجـوم عليـه إبـان الثـورة، فبـدا كأنـه قلعـة مـن قـلاع العصـور الوسـطى، لا ينقصـه سـوى أخـدود مملـوء بالمـاء مـن حولـه وجـسر معلـق.. أدلـف إلى الداخـل بعـد أن ركنـت سـيارتي خارجًـا.. أتحـرك في خطـوات بطيئـة مقاومًـا رغبتـي في تحطيـم المـكان عـلى رأس مـن فيـه.. جـاءني الجرسـون الأنيـق بابتسـامة مصطنعـة، قائـلاً بصـوت مُرحّـب:

- أهلاً يا باشا، تفضل...

أوقفته قبل أن يكمل مقاطعًا:

- أبحث عن حسن البرنس.

دعـوت ألا يكـون حسـن هـذا قـوادًا مـن الذيـن تعـج بهـم هـذه الأماكن، ولكـن نظـرة الجرسـون والابتسـامة التـي داعبـت شـفتيه بينـما يلقـي عـليّ نظـرة مـن نـوع «إذن فأنـت منهـم» جعلتنـي أعلـم مـا نـوع الشـخص الـذي أبحـث عنـه.. أشـار الرجـل إلى أحدهـم يجلـس في أحـد الأركان، ينظـر إلى مـا حولـه في تـراخٍ بينـما تراصـت أمامـه زجاجـات البـيرة الفارغـة.. توجهـت إليـه بينـما أتفـادى الأجسـاد مـن حـولي كأني أخـاف أن يلمسـني أحدهـم.. تغمـز لي امـرأة شـبه عاريـة الجـذع بطريقـة، حاولـت أن تجعلهـا مغريـة، لم تحـرك فيّ أي رغبـة سـوى رغبتـي في القـيء.. وصلـت إليـه في النهايـة فنظـر إليّ في تبجّـح وأمسـك بزجاجـة مـن الزجاجـات المفتوحـة أمامـه، قائـلاً:

- تحت أمرك.

- جئت إليك من طرف عادل.

ضيّق عينيه محاولاً التذكر، فاستطردت محاولاً تذكيره:

- عادل.. عملية التوصيل.

ارتسمت ملامح الغباء على وجهه لحظات ثم تقلص فمه، وانفجر بعدها في الضحك، لتظهر أسنانه السوداء، قائلاً من وسط ضحكاته:

- اجلس يا رجل أنا فقط ألاعبك.. عادل كان معي على التليفون منذ دقائق.

جلست مقاومًا رغبتي في رميه عبر المكان وتهشيم جسده.. ألعن ما على الأرض القوادين.. لا أرى عملاً في الدنيا أحط من تاجر الجنس، كأنه نخّاس الجاهلية لا يرى في الناس سوى عبيد، أو أسياد يدفعون مقابلهم.. هذا وأمثاله هم سفراء المدينة، تبعثهم المدينة الفاسدة لنشر العفن على الحوائط وفي الطرقات.. قال مغطيًا على أفكاري بصوته العالي، محدثًا الجرسون الذي أرشدني إليه:

- بيرة هنا يا جمال.

- لا؛ أنا لا أشرب بينما أعمل.

نظر إليّ في استهزاء وهز كتفيه قائلاً:

- أنا لا أشرب إلا عندما أعمل.

انفجر في واحدة من ضحكاته العالية، أثارت حنقي أكثر، فاكتفيت بالصمت، بينما أكمل:

- حسنًا، سأشرب مكانك أيها المتجهّم.

لم يكد ينهي كلماته إلا وخفتت الإضاءة في المكان، واشرأبت أعناق الرجال إلى مكان بعينه بجانب المسرح الصغير المقام في طرف القاعة.. وجدت حسن يغمزني قائلاً:

- أنت محظوظ يا رجل، نوال ستعتلي المسرح وستتمتع برؤيتها.

نظرت إلى المكان الذي اتجهت إليه كل الأعين، فرأيت تلك النوال تقف مغمضة العينين مميلة رأسها إلى أحد الجوانب.. تشكلت لصورتها هالة شيطانية بمجرد أن وقعت عليها عيناي، انقبضت معدتي وبدأ رأسي في الدوران.. انطلقت أغنية مزعجة من السماعات التي ملأت المكان

مـن حولنـا، فسـاهمت في إضافـة اللمسـات الأخـيرة عـلى الصـورة المقـززة مـن أمامـي.. فتحـت عينيهـا بعنـف مـع بدايـة الأغنيـة فانطلقـت الصافـرات مـن الرجـال المخموريـن المتناثريـن في المـكان.. وقفـت للحظـات تنظـر إلى مـا حولهـا كصيـاد يعايـن فريسـته قبـل الانقضـاض عليهـا، وبـدأت في تحريك رأسـها ذات اليمـين واليسـار عـلى الأنغـام، بينـما تـوزع نظراتهـا المفترسـة عـلى الجميـع.. مـرت لحظـات عـلى هـذا الوضـع، عينـاي معلقـة بالمشـهد بينـما حاجبـاي ينعقـدان في سـخط لم ينتـهِ إلا ووجـدت نـوال نقلـت التمايـل مـن رأسـها ليشـمل جسـدها كامـلاً.. بـدت كثعبـان ضخـم في تمايلهـا، فلـم ينقصهـا سـوى نابـين مملوءيـن بالسـم، بينـما تشـجعها الصافـرات والتهليلات مـن الجلـوس للمزيـد.. لم يخالـج وجههـا تعبـير، فبـدت كروبـوت كل مهمتـه تنفيـذ المهمـة دون مشـاعر.. بـدت غـير آدميـة تحـت كل طبقـات الأصبـاغ التـي غطـت وجههـا.. نظـرتُ إلى وجـوه الجالسـين فبـدأت صورهـم تتغـير في عينـيّ، رأيـت أحدهـم يتحـول إلى خنزيـر ضخـم ملـوث انطلقـت منـه صافرة طويلـة، آخـر رأيتـه يتحـول إلى ذئـب انطلـق في عـواء طويـل إذ بـدأت نـوال في فـك أزرار مـن ملابسـها.. معـدتي توشـك عـلى الـصراخ ورغبتـي في القـيء تجـاوزت حـدود احتـمالي.. يميـل عـلى أذني حسـن قائـلاً:

- نـوال هـذه اكتشـافي أنـا، لـديّ أيضًـا سـميرة مثلهـا، ولكـن مـن النـوع الشـعبي، تلتقـط الـرزق مـن الشـارع.

لم تـزدني كلماتـه إلا انقباضًـا فشـعرت كأنـه الشـيطان بنفسـه يجلـس بجانبـي.. لفحتنـي أنفاسـه الثقيلـة كالنـيران.. ثقلـت أنفـاسي واشـتد الـدوار بـرأسي وأحسسـت بالهـواء يقـل مـن حـولي.. جاهـدت نفـسي لئـلا أخـرج مهـرولاً مـن هـذا المـكان، فقلـت ضاغطًـا عـلى كلـماتي مقاومًـا رغبتـي في القـيء.

- ألم يحن الوقت بعد؟

نظر حسن إليّ وكأنني مجنون.

- وتضيّع على نفسك عرض نوال؟! لم تر شيئًا بعد.

اتسعت ابتسامته مكملاً:

- إنها أفضل استربتيز في البلد بأكملها.. اكتشافي.

أغمضت عيني محاولاً السيطرة على أعصابي ولكن علا صوتي دون رغبتي:

- لا أريد التأخر على المستلم.

نظر لي في تشكك للحظات وألقى نظرة أخيرة على نوال، قائلاً في سخط:

- حسنًا أيها الغاضب، هيا بنا.. انتظرني في سيارتك أمام الكباريه في خلال خمس دقائق من الآن.

قمت مسرعًا كأن شياطين الجحيم تلاحقني لأهرب من هذا المكان.. وقفت على الباب أعب الهواء حتى هدأت نفسي مجددًا، واستعدت رباطة جأشي، فتوجهت إلى السيارة منتظرًا ظهوره وأنا أدعو في نفسي ألا تحمل الليلة مفاجآت أخرى، ولكن ما رأيت حسن يمسكه في يده قادمًا نحوي، جعلني أوقن أن دعوتي لم تُستَجب.

رأيت حسن قادمًا إلى ناحيتي يمسك بيده يد طفلة صغيرة لا تتجاوز عشر سنوات.. تلملم ملابسها على جسدها اتّقاء للبرودة التي غطت الأجواء.. تبتسم ابتسامة مرتبكة فتظهر على جانبي فمها غمازتان.. كأنها من هؤلاء الأطفال الذين يرسمونهم في الصور واللوحات، لا تعترف بوجودهم إلا إذا رأيت أحدهم في الحقيقة. فتح حسن باب السيارة الخلفي لتدلف هي إلى الداخل مبتسمة في اتجاهي.. عقدتْ المفاجأة لساني، فسيطر الصمت على جسدي ولم أنتبه إليها وهي تلقي على مسامعي التحية.. كأني انفصلت عن عالمي وجلست هناك أشاهد ما يحدث، كأني لست طرفًا فيه.. سمعت حسن يكلمها بصوت حنون لم أظن أنه قادر على افتعاله:

- ستذهبي مع عمو الآن كما اتفقنا، فنفّذي كل ما يقوله لك.

ردت عليه بصوتها العذب البريء:

- حاضر يا عمو حسن.

استمر في تمثيل دوره ببراعة مكملاً:

- أين قبلة عمو حسن إذن؟

طبعت قبلة طفولية على خد حسن، بينما عيناي تتناقلان بينهما في اندهاش، لم يخرجني منه إلا كلمات حسن التي وجهها إليّ:

- حسنًا، يمكنك الذهاب الآن يا رجل.

أفلتت منه نظرة خبيثة ناحية الطفلة، مكملاً:

- وبلّغ سلامي إلى الباشا.

* * *

القاعدة الثامنة: **فلتذهب كل القواعد إلى الجحيم.**

كأن كلماته حررت جسدي، فانطلقت بالسيارة في سرعة، بينما لم تنفك عقدة لساني.. سمعت صوتها من ورائي يتكلم متوددًا:

- هل أنت صديق عمو حسن؟

حاولت تجميع الكلمات، فلم أنجح إلا في إطلاق غمغمات متناثرة لم تدل على شيء، ولكنها أكملت:

- عمو حسن هذا طيب جدًا.. أعطاني حلوى كثيرة وأنقذني من عصابة الأشرار الذين اختطفوني من بابا وماما.

كانت الأسئلة تتكاثر في عقلي، بينما تكمل كلماتها:

- اشترى لي ملابس جديدة وتركني مع طنط ميرفت، التي وضعت لي هذه الأشرطة الملونة في شعري.

عليك اللعنة يا عادل! ما الذي ورطتني فيه؟

- ووصل إلى بابا في أقل من يوم واحد.. أنت ستأخذني إلى بابا الآن، أليس كذلك يا عمو؟

لم أرد على سؤالها بشيء، فأكملت كأنها سمعت إجابتي:

- أكيد ستفعل، فعمو حسن لا يكذب أبدًا.

أضحكتني جملتها الأخيرة، فبالتأكيد هي تتكلم عن حسن غير الذي قابلته.. هل اختطفها حسن مقابل فدية وأنا المُكلّف بإعادتها إلى أهلها؟ أم أنا متورط الآن في شيء أكبر من هذا؟ لا أسئلة، هذا كان الشرط الأساسي والوحيد لهذا العمل.

- أنا ندا.. ما اسمك يا عمو؟

أفاقني سؤالها من إعصار أفكاري، فنظرت إلى وجهها الملائكي وعينيها المتسائلتين في مرآة السيارة مليًا.. ابتسمت دون وعي مني ولم أجبها، فازدادت علامات الحيرة على وجهها.

- لماذا لا تتكلم؟ هل أنت أخرس يا عمو؟

ابتسامة أخرى تفلت مني عند سماعي كلماتها، بينما نقترب من عنوان التسليم وتلوح تلك الفيلا الضخمة في الأفق.. انطلقت هي في الكلام مرة أخرى، لكن هذه المرة لم أسمعها، إذ غطى صراخ الأسئلة في عقلي على كل الأصوات من حولي.. تنمو حبات العرق البارد على جبيني.. تتقلص أصابعي على عجلة القيادة بين يديّ.. أحدّث نفسي أن اهدأ.. لا يسمح بالتوتر في عمل مثل عملي، أنت متوتر إذن فأنت لست من تدعي.. أنت متوتر إذن فأنت من الشرطة.. أنت متوتر إذن فأنت جثة.. أتوقف عند باب الفيلا المغلق وأتأكد من العنوان.

- هل وصلنا يا عمو؟

تسألني الطفلة، فأهز رأسي بهدوء وأتطلع إلى ما حولي.. ذلك الانقباض الذي أشعر به في معدتي ينبئني بالكثير.. هذا مكان فاسد، أحد معاقل المدينة الفاسدة.. لا كاميرات مراقبة أو حراسة على الباب، وهذا معناه أن من يسكن بالداخل يعلم أنه لا أحد يجرؤ على مهاجمته.. هذا شخص اعتلى سُلم الفساد حتى نهايته.. أمن شر المدينة لأنه أصبح من

أعمدتـه.. أطلـق بـوق السـيارة مرتـين فينفتـح بـاب صغـير بجـوار البوابـة الرئيسـية، ويخـرج منـه أحـد أفـراد الأمـن متضخمـي الأجسـاد.. أبتلـع ريقـي بصـوت مسـموع وأبتلـع معـه مـا تبقـى مـن توتـري.. يميـل عـلى شـباك سـيارتي يتفحّـص وجهـي، فأقـول بهـدوء مصطنـع:

- أنا من طرف عادل.. جئت لإتمام التسليم.

يكـرر كلـماتي في الـلا سـلكي الـذي يمسـكه في يـده، فأسـمع الصـوت الغليـظ للطـرف الآخـر يقـول في نـبرة ارتيـاح:

- أخيرًا! كنت أظنه لن يأتي الليلة.

ثم في لهجة آمرة -لرجل تعود على الأمر- أكمل:

- خذ البنت التي معه إلى الداخل ودعه يذهب.

نفّـذ الرجـل مـا قيـل لـه في آليـة، بينـما الطفلـة تنظـر إلى وجهينـا في توتـر.. انغلقـت البوابـة الصغـيرة مـن ورائهـم وظللـت عـلى حـالي لدقائـق، لا تـزال نظـراتي معلقـة بالبـاب المغلـق حتـى حسـمت قـراري.. تحركـت بالسـيارة للخلـف وأنـا أهـز كتفـيّ، بينـما أكلـم نفـسي قائـلاً:

- فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم، لا شأن لي بهذا.

لا أسـئلة هـذه هـي أهـم وأكـبر قواعـدي.. لا أسـئلة ولا نـدم، فليفعـل كل شـخص مـا يشـاء مـا دام يفعلـه بعيـدًا عنـي.. أنـا لسـت برقيـب عـلى الأشـخاص ولسـت بأفضلهـم كذلـك.. أنـا لسـت الفـارس الأبيض، بـل بالعكس، أنـا أحـارب لصالـح الجانـب الآخـر كل يـوم.. أنـا جـزء مـن وجـه المدينـة القبيـح.. أنـا آذيـت أشـخاصًا أكـثر مـما أنـا قـادر عـلى العـد، ولكنـي دائمًـا مـا تحججـت بـأن مـن أوذيهـم هـم أكـثر شرًا منـي.. لم أمـد يـد المسـاعدة أبـدًا لـبريء ولكنـي لم أمسّـه بـالأذى كذلـك.. أطلقـت زفـرة قويـة حملـت كل مـا يعتمـل في نفـسي، وأنـا أحـاول التركيـز في الطريـق الخـالي مـن السـيارات.

- اللعنة!

أطلقتهـا بعلـو صـوتي وأنـا أديـر السـيارة في الاتجـاه المقابـل لأتوجـه عائدًا

إلى الفيلا من جديد.. أنا أعلم أني سأندم على هذا، ولكن قلبي يحدثني أن شيئًا مرعبًا يحدث هناك.. نظرة حسن الخبيثة ونبرة الارتياح التي بدت في صوت الباشا صاحب الفيلا يطرحان احتمالات أكثر رعبًا من أن أفكر فيها.. فلتذهب كل القواعد إلى الجحيم.

* * *

أقف بجانب السور أتنفس من تحت قناعي الذي لا يُظهر سوى عينيّ.. لا أريد لفرد الأمن الذي رآني أن يتعرف على وجهي الآن.. إن فشلت فهم يعلمون أنني من طرف عادل، الذي لا بد أنهم يعلمون مكانه، وهو لن يتورع عن إعلامهم بمكاني حفاظًا على رقبته.. لا أستطيع المخاطرة بالظهور بوجهي الذي كشفته لهم من قبل.. لم أحب أبدًا هذا القناع، ولكني دومًا ما وضعته بين حاجياتي للضرورة، ولا أفضل من هذا اليوم لاستخدامه.. عصاي الحديدية رفيق دربي ترتجف في يدي كأنها تمنعني مما أنا مقبل عليه، ولكني لا أستطيع.. جزء مني ما زال يحاول الحفاظ على إنسانيته، وهذا الجزء هو ما يحركني الآن، هو ما يشعرني أني ما زلت حيًا.. أقفز إلى الناحية الأخرى من السور في صمت، وأتفقد ما حولي في حذر، إذ تدور عيناي في الموجودات.. أرى فردين من الأمن من بعيد فأتحرك ناحيتهم في سرعة.. ضربة كانت من نصيب كل منهم أفقدته وعيه في الحال.. واحد آخر رآني لحظات قبل أن ينهار على الأرض كالبالون المثقوب.

- ثلاثة فقط! هذا غريب.

قلتها لنفسي، ثم بررت لنفسي:

- ربما اليوم هو إجازتهم.

ألتفّ حول الفيلا إلى بابها الخلفي الذي لا بد أن يكون مفتوحًا.. أرى فرد الأمن الذي فتح لي الباب يعد لنفسه بعض الطعام في المطبخ.. لزمه الأمر بضع ضربات زائدة حتى أنهيت أمره.. أتحرك في سرعة

بين الحجرات ليصل إلى مسامعي صوت موسيقى هادئة من الطابق الثاني.. أتتبع مصدرها لأصل إلى حجرة مغلقة تشع منها روائح العطر والبخور.. تلصصت من فتحة الباب فهالني ما رأيت.. مشهد لم أظنه قد يزورني في أسوأ كوابيسي.. ندى الطفلة ذات عشر سنوات ملقاة على فِراش، بينما شعرها الناعم يتشكل في هالة حول وجهها زادت من ملائكيتها، بينما رجل شبه عار يتشمم وجهها في عنف.. كضبع نجس يتشمم ضحيته قبل الانقضاض عليها والتهامها.. فقدت عقلي وطار صوابي في تلك اللحظة.. لم أدر بنفسي إلا وأنا أكسر الباب بقدمي وأحمل الرجل لألقي به عبر الغرفة.. اشتعلت النيران في عينيّ واسودّت الدنيا من حولي.. صرخة خرجت من حنجرتي بدت للحظة كالزئير.. يحاول النهوض فعاجلته بقبضتي في وجهه لتتطاير ثلاثة من أسنانه.. يحاول الكلام، فكانت قدمي تستقر بين رجليه تسحق عضوه.. وقفت لاهثًا، أتنفس النار عبر صدري، بينما الطفلة على الفراش بلا حراك.. كم من طفلة احتفل بها هذا النجس في ليلة مثل هذه؟! كم من براءة هتكها إرضاءً لشهواته؟!

- كم؟ كم؟

سألته، بينما تضغط عصاي على حنجرته وأنا أشدها على جسده واقفًا خلفه.. يحاول التملّص من مصيره فيطوّح بيديه في الهواء، ولكن دون جدوى.. كأني أخنق مدينة الشر، شددت من قبضتي على عصاي ناظرًا إلى السقف في تصميم.. لم أقتل أبدًا من قبل، لكني لم أفكر في هذا وقتها.. هدأت حركته حتى توقفت عندها، أغمضت عيني شاعرًا بالخلاص.. تركت جسده الفاقد للحياة يقع على الأرض لأطمئن على الطفلة.. وقفت للحظات صامتًا لأراها تتنفس، فخرجت مني زفرة ارتياح.. لا بد أنه خدّرها حتى ينهي جرمه، ولكن بعثني القدر لأمنعه وأمنع المدينة من الفوز هذه المرة.. حملتها بين ذراعيّ إلى الخارج

مستشـعرًا طهـر روحهـا يغلـف روحـي المعذبـة.

* * *

أوقفـت سـيارتي، بينـما بـدأت الطفلـة في التململ في مقعدهـا.. فتحـت عينيهـا في بـطء قائلـة:

- أين أنا؟

ابتسمت لها في حنان، قائلاً:

- أنتِ في أمان يا صغيرتي.

- أنت تتكلم يا عمو.. ظننتك أخرس.

ازدادت ابتسامتي فسألتني في حيرة:

- عمـو في البيـت الكبـير قـال لي أن أشرب العصـير وأن بابـا في الطريـق ليأخـذني مـن عنـده، ولا أتذكـر شـيئًا بعدهـا.

- لا تخافي يا صغيرتي، فبابا سيأخذك من عندي أنا.

- هذا أفضل، فأنا لم أحب عمو الذي في البيت الكبير.

نظرت حولها في دهشة، ثم قالت:

- أليس هذا مكان عمل عمو حسن؟ هل سيأتي معنا؟

- لا، أنا فقط سأبلغه شيئًا سريعًا.

- أبلغه سلامي يا عمو.. ما اسمك؟

نظرت إليها وأنا أفتح باب السيارة في شدة، قائلاً:

- لا تقلقي سأبلغه أكثر من سلامك، أما بالنسبة لاسمي...

أغلقت الباب بعد نزولي قائلاً:

- اسمي فارس.. عمو فارس.

بايرومينيا

وما عتبت على النيران تأكلني
إذا احترقت فإن الشهب تحترق
نزار قباني

- إذن، أخبرني ما شكواك؟

قالها وهو يرفع ساقه يضعها على الأخرى إما طلبًا لمزيد من الراحة في جلسته أمامي، وإما ليضفي مسحة زائدة من الوقار على صورته أمامي.. ابتلعت ريقي بصوت عالٍ وأنا أفرك يديّ في ارتباك.. حاول لساني أن يبدأ بالكلام ولكن قلقي منع صوتي من الخروج.. لاحظ ارتباكي وقلقي فارتسمت ابتسامة واثقة على وجهه، ونظر إلى الأوراق في يديه، ربما ليتذكر اسمي قائلاً:

- خذ وقتك يا خالد ولا تقلق من أي شيء.. اعلم أن أي شيء تقوله هنا يندرج تحت باب السرية المطلقة ولن يعرفه مخلوق سوانا.

زحزحت كلماته صخرة ارتباكي الجاثمة على صدري قليلاً، ولكن لم تنجح في رفعها بالكامل.. أغمضت عينيّ لتدغدغ تلك الموسيقى الهادئة -التي لا أعلم مصدرها- مسامعي.. تأتي من لا مكان ومن كل مكان.. استجمعت شجاعتي وتكلمت بصوت خفيض:

- أنا عندي مشكلة يا دكتور.

شبك أصابع يديه أمام وجهه في وضع من تلك الأوضاع التي يجيد فعلها الأطباء النفسيون، حتى لتظن أنهم يعلمونهم إياها في الجامعة.

- حسنًا هذه بداية جيدة.. أكمل.

أطلقت زفرة طويلة حملت كل ما يعتمل بداخلي.

- بدأ كل شيء عندما كنت في الرابعة عشر.. أب حنون وأم مشغولة طيلة يومها في ترتيب أمور المنزل.. بعض المشاحنات بين أبي وأمي بسبب مصروف البيت في أغلب الأوقات، هو يتهمها بالتبذير وهي تعايره بقلة ما يعطيها.. أقوم من نومي صباحًا.. أذهب إلى المدرسة.. يوم ممل مثل كل الأيام.. أتفادى المتنمرين الأغبياء الذين لم يتركوني يومًا دون أن يعذبوني بسبب بدانتي المفرطة.. أعود إلى البيت وأجلس

إلى المائـدة، ليـأكل ثلاثتنـا في صمـت ونحـن نشـاهد التلفـاز.. أسـتذكر دروسي.. أفكـر في بنـت الجـيران بعـض الوقـت وأكتـب لهـا خطابًـا، أمزّقـه بعدمـا أنهيـه بلحظـات ثـم أنـام.. مراهـق مثلـه كثـير.

كأنما قرأ عقلي، استوقفني قائلاً:

- ثم ماذا حدث ليفسد حياتك هذه؟

أغمضـت عينـيّ ربمـا لأكبـت دموعـي، بينـما المشـاهد تتلاحـق في مخيلتـي.

- رجـع أبي ذات يـوم إلى البيـت زائـغ العينـين مصفـرّ الوجـه لاهـث الأنفـاس، كأنـه موشـك عـلى الإصابـة بنوبـة قلبيـة.. لـك أن تتخيـل كـم الصرخـات والشـهقات التـي خرجـت مـن أمـي بينـما رأتـه عـلى تلـك الحـال، بعـد خمـس أكـواب مـن المـاء المُشـبّع بالسـكر بـدأ أبي في الـكلام.. كان يتكلـم بسرعـة فلـم أفهـم نصـف مـا يقولـه.. تكلـم عـن الفسـاد، عـن الرشـاوى، عن المصنـع الـذي يفتـح أكـثر مـن ألـف بيـت.. تصـب أمـي كـوب آخـر مـن المـاء بالسـكر في فمـه ثـم يكمـل.. يتكلـم عـن هـؤلاء الحقـراء الذيـن يريـدون أن يضعـوا بصماتـه عـلى السـكين، خـيروه إمـا أن يكـون لصًـا مثلهـم وإمـا... لم يتوقـف عـن الـكلام لسـاعة كاملـة حتـى تصـورت أنـه لـن يصمـت أبـدًا.. في النهايـة قـال بوجـه محمـرّ فليذهـب أولاد الكلـب هـؤلاء إلى الجحيـم وليفعلـوا مـا يريـدون فلـن أكـون مثلهـم أبـدًا، ودخـل لينـام لليـوم التـالي بعـد أن فرغـت شـحنته. توقـف عـن الذهـاب للعمـل نحـو الأسـبوع، ربمـا تفاديًـا لأي صـدام محتمـل.. كان يجلـس وحيـدًا ينظـر إلى الفـراغ، بينـما السـيجارة تحـترق بـين يديـه دون أن تقـترب مـن فمـه.. نتحـرك مـن حولـه فـلا يشـعر بنـا.. ينظـر إلى بـاب الشـقة في تحفّـز كأنـه ينتظـر شـخصًا مـا. لم يخـب أملـه، فبينـما هـو جالـس جلسـته المعتـادة طرقـت أيـاد ثقيلـة بابنـا، فقـام في تثاقـل يجرجـر خطواتـه كأنـه يعلـم القادمـين.. انفتـح البـاب عـلى شرطيـين يسـألانه أن يرافقهـما إلى القسـم.. لم يسـأل أو يتكلـم، فقـط

استأذنهما في تغيير ملابسه ونظر إلينا نظرة زجاجية وخرج معهما في هدوء، لأعلم فيما بعد أن المصنع تم حرق مخازنه كعادة تلك المصانع وقت الجرد السنوي وأنهم يتهمون أبي بتدبير الحريق.. أتذكر جيدًا نظراته لنا عندما زرناه في القسم، بينما المحامي يحاول طمأنته.. نظر إليّ في عينيّ دون كلمات وابتسم ابتسامة مليئة بالأسى، ثم استدار عائدًا إلى الزنزانة.

فتحت عيني لأجده يدوّن بعض الملاحظات في أوراقه، فأغمضها مرة أخرى وأكمل:

- لك أن تتصور السيرك الذي تحول إليه بيتنا في الأيام التالية.. زيارات عائلية شبه يومية، يجلسون يشربون القهوة في صمت كأنه عزاء، ويسألون الأسئلة التقليدية عن المحامي والتحقيقات وكل هذه الشكليات.. تقسم لهم أمي أنه لم يخرج من البيت لمدة أسبوع فيهزون رأسهم في تصديق زائف، ولسان حالهم يقول وما أدرانا! قد اعترف عليه زميله في التحقيقات، بل قال إنه المخطط لكل شيء، وهل سنعلم أكثر من الحكومة؟ تبكي أمي لا لشيء سوى لإضفاء حس درامي على الموقف.. قد رأتهم يبكون في الأفلام والمسلسلات في المواقف المماثلة، فلا بد أن تبكي مثلهم.. ينصرف الجالسون بينما تركوا ظرفًا فيه بعض الأموال على المنضدة الكبيرة التي تتوسط غرفة المعيشة لزوم المصاريف، كما يقولون.. المحامي النصاب يخبرنا أن موقفنا ضعيف لكن اطمئنوا فلا شيء مستحيل.. يهز رأسه في وقار مصطنع يقنعنا أنه يعلم الظروف ولكن القضية تحتاج إلى مصاريف كثيرة، مع ابتسامة لزجة منفّرة ترتسم على وجهه.. تتكرر زيارات ذلك الشخص الذي قدمته أمي على أنه ابن عمها العائد من سفره.. يربت دائمًا على كتفي ويحاول التودد إليّ بطريقة مبتذلة.. ترتدي أمي أفخر ثيابها وتضع العطر قبل أن يأتي.. يصافح أمي عند خروجه، فتطول مصافحته،

بينما يثبت عينيه بحوَلهما الخفيف في عينيها بنظرة نصف شهوانية.. تنقطع زيارات العائلة بينما تزداد زيارات ابن العم العائد.. ترتدي أمي السواد وتذهب إلى المحكمة لنجلس وأنظر إلى أبي في قفص الاتهام منكّس الرأس كأنه يعلم القادم.. يخترق صوت القاضي البارد صدري، بينما يُحكم على أبي بالحبس عشر سنوات في السجن على جريمة، أنا متأكد أنه لم يفعلها.. نظرت إلى أبي طيلة الوقت لكنه لم ينظر ناحيتي ولو لمرة واحدة، كأنه يتفادى أن تلتقي عينانا وهو في هذا الوضع المهين.. تعده أمي أن تزوره دائمًا بينما هو لا ينظر ناحيتنا.. لمحت الدموع في عينيه لأول مرة في حياتي، قبل أن يختفي عن ناظري داخل عربة الترحيلات.

اختنق صوتي فتوقفت عن السرد، لأستمع للحظات إلى صوت احتكاك القلم بالأوراق في يديه.. انتبه إلى صمتي بعد لحظات فسألني، ربما ليحثني على مزيد من الكلام:

- وكيف كان شعورك وقتها؟

- مشاعري كانت متخبطة؛ لا أستطيع تحديد أي منها.. اختلطت بتغيرات المراهقة وفورة الهرمونات، لكن كانت هناك تلك اللحظة التي غمرني فيها شعور بعينه.. أجلستني أمي أمامها بعد الحكم على أبي بأسبوعين تكلمني عن المستقبل.. كيف أنه لا دخل ثابت لنا الآن وأنه لا بد من دفع الإيجار ومصاريف البيت، غير مصاريف مدرستي.. كيف أن أبي سيبتعد لفترة ليست بالقليلة، وأن مصاريف المحامي والقضية أكلت كل ما ادّخرناه على مر السنوات.. لن نعيش على المعونات طيلة العمر، تقول.. لا بد من أن نمضي بحيواتنا إلى الأمام وندفن على الماضي من ورائنا، تقول.. تشكر لي في العم مسعد ابن عمها العائد الذي وقف معنا إلى هذه اللحظة لأنه يعزها، حسب قولها.. لمعت عيناها للحظة ساعة أن جاءت على ذكر مسعد، وأفلتت منها ابتسامة دون أن تتحكم

فيها.. ساعتها علمت كل ما هو قادم.. تقول لي إنه لا يمكن تعويض أبي أبدًا، فهو رجل جيد، بل هو أكثر من جيد.. تتكلم عنه كأنما مات.. تقول إنها لا تتوقف عن التفكير في القادم الأسوأ، وإن الله قد بعث إلينا بطوق نجاة من السماء في شكل العم مسعد.. تتوقف للحظات لا تعلم كيف ستقولها، لكني سبقتها إليها.. رفعت عينان تجمد فيهما الدمع وقلت بصوت مرتجف، ستتزوجيه، أليس كذلك؟ أومأت برأسها في صمت واضعة عينيها في الأرض.. لدقيقة كاملة ساد الصمت، بينما نظري مثبّت إليها لا أعلم ماذا أفعل.. في تلك اللحظة سادني شعور بالعجز لم أرَ مثله في سنوات عمري القليلة.. كنت أتمنى لو صرخت في وجهها، أن أنعتها بالخيانة ونكران الجميل، أن أمنعها من هذا المسعد، لكني وجدتني أبتلع كل ثورتي وأقطع الصمت الذي طال بصوت مبحوح، قائلاً كلمة واحدة.. مبروك.

يغيّر من وضع ساقيه ويسألني في اهتمام:

- وكيف كانت أحوالك مع مسعد؟

انطبعت ابتسامة مرتجفة على شفتيّ.

- بعد أن حصلت أمي على الطلاق من أبي وانقضت أشهر عدتها انتقل مسعد إلى شقتنا.. دفع مبلغًا كبيرًا لصاحب العمارة ليغير عقد الإيجار باسمه.. لم يكن هناك فرح تفاديًا للمعضلة الاجتماعية.. جاء بعد الظهر ومعه ثلاث حقائب كبيرة احتوت على ملابسه وحاجياته وخرج، ليرجع في المساء ومعه مأذون أتم إجراءاته في سرعة، بينما تبتسم أمي في خجل مصطنع.. أتى مسعد بعدها إلى غرفتي والأسى المصطنع يغطي وجهه يخبرني أنه يتفهم مشاعري بالكامل وأنه لا يسعى إلى إحلال أبي.. يريد أن نصبح صديقين كما قال.. لأسمع صوت أمي تنادي عليه في دلال، فتبدلت ملامحه ولمعت شهوته في عينيه ذات الحوَل، ليربت بعدها على كتفي ويتركني.. كم كرهته في هذه اللحظات! كم

كرهته وكرهت أمي التي لم أستطع منع نفسي من نعتها بالخائنة كلما خلوت إلى نفسي! ومما زاد من معاناتي أن مسعد لم يحلو له مداعبة أمي إلا أمامي.. كنا نجلس إلى مائدة الطعام فيأتي إليها يرتدي فانلته ذات الحمالات التي يتدلى منها كرشه، ويمد يده يلمسها أو يقرصها، بينما هي تضحك في ميوعة.. كأنه كان يستمتع برؤيتي لهما، بينما أمي تظنني ما زلت صغيرًا على فهم هذه الأشياء.

قاطعني في هدوء:

- وكيف أثّر كل ذلك على تصرفاتك؟

- لك أن تتصور يا دكتور.. أصبحت قصير الفتيل، مستعدًا للانفجار في أي لحظة.. مسعد لم يعاملني كصديق، بل دومًا عاملني كغريم أشاركه في حب أمي، وأمي أفنت أوقاتها في خدمة القادم الجديد لتنساني تمامًا.. كانت دومًا خائفة من خسارته والرجوع إلى حالة الضياع والتسول، لذلك أصبحت شبه خادمة لأهوائه ورغباته، التي إن أطلقت عليها «منحرفة» ستقلل من قدرها بكثير.. حاولت أن أختفي من أمام أعينهما قدر الإمكان، كنت أتحاشى الوجود مع أي منهما طالما استطعت، ولم يبدُ على أي منهما الاهتمام بوجودي من عدمه.

ارتسمت علامات السخط على وجهي وأنا أستطرد:

- الغضب يا دكتور.. الغضب كان يملؤني طيلة الوقت.. تورطت في مشاجرات هذا العام أكثر مما أتذكر.. كسرت أسنان واحد من أقراني لمجرد أنه حاول السخرية مني، وآخر رميته في الهواء عبر الغرفة ليصاب في رأسه بعد أن نعتني بالبدانة.. غضبي كان يعطيني قوة مضاعفة مرات فوق مرات.. قررت فجأة أن أتنازل عن دور الضحية وأن أصبح أسوأ من أسوأ المتنمرين.. هل تعلم أكثر ما يفزعني اليوم؟ أن هذا لم يفزعني البتة وقتها.. كنت أتحول إلى أسوأ كوابيسي دون أن يطرف لي جفن.. غضبي لم يكن موجهًا إلى أقراني فحسب، بل إلى كل العالم

من حولي، أذكر مرة كنت أدلف إلى مدخل العمارة التي أقطن بها، فقفز قط كبير من وسط الظلام ليفزعني كعادة كل القطط السخيفة.. لا أعلم لمَ ذكرتني عيناه بعينيّ مسعد ذات الحول.. حملته من أذنيه وصعدت إلى سطح البيت وهو يصدر أصواتًا بدأت غاضبة وانتهت متوسلة.. وقفت بجوار الحافة ونظرت إليه في جنون، بينما القط يركل في هواء دون جدوى.. نظرت إلى عينيه المشقوقتين وأنا أتخيل أني أنظر إلى مسعد، وألقيته من فوق الحافة بينما أضحك صارخًا، يقولون إن القطط دائمًا ما تهبط على قدميها.. كنت أتحول إلى ما يشبه الأشرار الخارقين في القصص المصورة، لم ينقصني إلا وشاح أسود يرفرف من وراء ظهري وبعض الصواعق تظهر للحظات في السماء، بينما أملأ الدنيا بضحكاتي الشريرة المتقطعة.. كنت أتحول إلى مخبول بكل ما في الكلمة من معانٍ.

رجع في مقعده واتخذ وضعًا جديدًا زاده وقارًا، وتحدّث بصوت عميق كأنما يحاضرني:

- نوبات الغضب هذه ليست شاذة في هذه السن ومع كل ما مررت به...

استوقفته في سرعه قائلاً:

- لم أنتهِ بعد يا دكتور، ما كان هذا إلا خلفية المشكلة الحقيقية.. ليتها توقفت عند نوبات العنف ورمي القطط من السطح.

لمحت حاجبيه يرتفعان في دهشة ممزوجة بالإعجاب، لا أنكر أني أحسست ببعض الفخر؛ لقد أدهشت الطبيب النفسي الذي من المفترض ألا يندهش.. بلل شفتيه بلسانه وأشار لي بيده أن أكمل.

- بعدها بدأت الرؤى.. كنت قد جاوزت الخامسة عشر بشهرين، لا أنكر أن غضبي بدأ في النقصان رويدًا، وبدأت أتقبّل الحياة كما هي بعد طن من المشاكل في المدرسة انتهت بفصلي مرتين لثلاثة أيام

لم يعلم بهما أحد.. لم يكن أحد يسأل فلم أجد في نفسي الرغبة في المشاركة.. مسعد بدأ في السفر كثيرًا تلك الفترة، ربما ملأ من أمي التي نال منها أكثر مما يريد.. كانت تعلم أنه يخونها مع أخريات، ولكن لم تجرؤ على فتح فمها، وهو لم يهتم بمعرفتها من عدمه.. ربما أزال هذا الجزاء العادل جزءًا كبيرًا من غضبي.. الخائن للخائنة، كنت أكررها كثيرًا متشفيًا في أمي عندما أرى بكائها الصامت بينما تقف وحدها تنظر إلى بقع ملمع الشفاة في مناديله أو تشم عطرًا نسائيًا في ملابسه.. انتظمت حياتي ومعها دراستي التي بدأت في التعافي من التعثر.. ربما يومها كنت أمرّ أمام المرآة على ما أتذكر لأتوقف فجأة محدّقًا إلى انعكاسي الذي لم يكن كالذي ألفته، كأنني كنت أنظر إلى نفسي من خلال الماء.. صورتي مشوّشة متموجة.. اقتربت من المرآة في رهبة وأنا أستعيذ من الشيطان بلسان متخبط.. شيء ما بداخلي كان يدفعني للاقتراب بينما عقلي يصرخ أن أبتعد.. أحسست بحمل جسدي يخف من على قدميّ كأني أطير عن الأرض، أندفع لأتوحد مع انعكاسي المشوّش.. شعرت كأنه يأخذ بيدي يشدني إلى عالمه.. اسودّت الدنيا للحظات بينما يمرق جسدي من المرآة، فتحت عيني لأجدني اطفو في الفراغ وأراني من بعيد.. رأيتني أطير عاري الجذع ناحية الشمس، لم يكن أنا بالضبط، بل كان نسخة معدلة مني.. ممشوق القوام قوي البنيان، كل ما تمنيت أن أكونه باختصار.. رأيتني أمد يدي إلى لهيب الشمس وأكبش بيدي من نارها.. أنظر إلى النار التي ملأت قبضتي في تحدٍ، التَفتَ إلى الوراء فرآني ليرمقني باستهزاء.. رفع يده عاليًا بينما أنظاري معلّقة بالنار المستعرة هناك، ثم بكل قوته رماني بما في قبضته ليدفع جسدي عبر المرآة عائدًا إلى عالمي من جديد.

- وهل حدثت لك تلك الرؤى من جديد؟

- ثلاث مرات أخرى لا أتذكر منهم إلا واحدة، رأيت نفسي مرة

أخرى أستحم في حمم بركانية باستمتاع بينما لا يمسني من نارها ضرر، بينما تألم جسدي العادي من حرارتها لدرجة أني لما أفقت وجدت احمرارًا في جلدي.

- ومتى توقفت تلك.. الرؤى؟

- ليلة رأس السنة.. أتذكر هذه الليلة تمامًا، كنت عائدًا من الخارج بعدما حضرت واحدًا من تلك الدروس الخصوصية التي لم تفلح في حشر معلومة إضافية داخل عقلي الذي يشغله الكثير.. كانت آخر رؤيا جائتني في الليلة التي سبقتها.. فتحت الباب فسمعت بعض الاصوات العالية بالداخل، كان مسعد وأمي يتشاجران.. دخلت بهدوء لأتنصّت على ما يقولان، فسمعت أمي تصرخ بانهيار أني لا بد أن أعلم كل شيء.. يرد عليها مسعد أني ما زلت صغيرًا وأن خبرًا كهذا قد يقضي على نفسيتي التي هي أصلاً خرابًا.. تتهمه أنه بلا قلب، كيف يمنع عن الابن خبر موت أبيه.. أسقط في يدي بينما أسمع ما يقولان.. لم أدر بنفسي إلا وأنا أجرى إلى خارج البيت، أنزل السلالم وأطلق قدميّ في الشوارع بينما دموعي تنهمر من عينيّ لا أكاد أرى منها شيئًا.. ظللت أجري لا أعلم اتجاهي، حتى وجدتني أمام بيت قديم أمامه عامود نور وحيد وبعده الفراغ فتوقفت.. كان كل ما يلح على عقلي وقتها هو سؤال وحيد، كيف مات؟ هل استسلم قلبه بعد كل ما عاناه من ظلم وغدر أتمتهم أمي بالخيانة؟ كان في أتم صحة قبل السجن فكيف به ميتًا بعدها بأقل من عام؟ لا لم يمت، هكذا فكرت، بل قتل.. قتله كل من آذاه وأجهزت عليه أمي بسكين الخيانة الذي غرسته في قلبه الذي توقف.. قلّت دموعي وهدأت ثورتي، فبدأت في الرجوع محاولاً معرفة الطريق.. قضيت ساعة أو يزيد في الجري من شارع إلى آخر حتى وصلت إلى هذا المكان المقفر.. وجدت أتوبيسًا يمر بالقرب من بيتي فدلفت إليه لأنهار على أول مقعد قابلني.. سمعت وقتها صوتًا في رأسي لم أسمعه

مـن قبـل.. صوتًـا يشـبه الصـدأ لـو كان للصـدأ صـوت، كان يقـول في رأسي ألا تظـن أن هـذا الأتوبيـس سـيبدو أجمـل محترقًـا يتصاعـد منـه الدخـان.. نمـرّ عـلى مبنـى ضخـم في الشـارع فأتصـوره غارقًـا في النـيران بينـما يحـاول رجـال الإطفـاء السـيطرة عـلى الحريـق فـلا يسـتطيعون.. كنـت غاضبًـا مـن كل شيء، مـن أمـي ومسـعد، فسـاد القائمـين عـلى الأمـور، مـن الشرطـة التـي أخـذت أبي إلى حتفـه، مـن القـاضي ذي الصـوت البـارد الـذي حكـم عـلى أبي بالمـوت في سـجنه.. كانـت النـار تعلـو بداخـلي ومعهـا تعلـو صـور النـار التـي أصبحـت تغطـي كل شيء أشـاهده.. فجـأة تملكتنـي رغبـة كاملـة أن أحـرق شـيئًا.. رغبـة لم أر مثلهـا في حيـاتي، كأن كل مشـاكلي سـتحل وسـيعود كل شيء إلى حالـه إذا حوّلـت العـالم مـن حـولي إلى رمـاد.. تذكـرت السـيارة القديمـة الملقـاة في شـارعنا دون إطـارات أو أبـواب، ربمـا سـتصلح.. ترجّلـت مـن الأوتوبيـس وكلي شـوق إلى شـارعنا كمـن عـلى لقـاء بحبيبـة قديمـة.. وقفـت أمـام السـيارة المتسـخة وأخرجـت علبـة الثقـاب التـي اشـتريتها في طريقـي.. أشـعلت حفنـة مـن عيـدان الكبريـت وأنـا أنظـر إلى ثمـرة النـار في انبهـار، لأشـاهد الزهـرة البرتقاليـة السـاخنة تشـق طريقهـا إلى كل مـا في السـيارة.. في دقائـق قليلـة كانـت النـار تتراقـص رقصتهـا المحمومـة وتـأكل كل شيء، بينـما أنفـاسي لا تتوقـف عـن اللهـاث في حـماس.. تلـك الرائحـة، الحـرارة، رقصـة النـيران، صـوت تـآكل الأشـياء.. استشـعرت الحـب لأول مـرة في حيـاتي.. شـعوري أن النـار قـد تخـرج عـن السـيطرة في أي وقـت -بـل قـد تحرقنـي أنـا شـخصيًا- كان يضاعـف مـن إثـارتي.. تلـك القـوة الخفيـة التـي اكتشـفتها في علبـة ثقـاب صغـيرة.. أحسسـت لحظتهـا أني لا أقهـر كأني أقـوى مـن الدنيـا بأكملهـا، بينـما الصـوت في رأسي يتـأوّه في شـبق.. لأول مـرة منـذ فـترة طويلـة شـعرت بالسـعادة الحقيقيـة.. شـعرت بالخفـة في خطـواتي، كأنمـا غسـلت النـار كل أحـمالي، فعـدت إلى البيـت بابتسـامة مـلأت وجهـي لانـام إلى الصبـاح كإنسـان جديـد.

فقد وقاره قليلاً بينما سألني في انبهار:

- وهل كررت هذا مرة أخرى؟

- مرات عدة، كلما دفعتني الرغبة واشتد بي الشوق أحرق بعض الأوراق القديمة في الشرفة أو أشعل البوتجاز فقط لمشاهدة النيران.. غيرتني النار وجعلتني ما أنا عليه الآن، مسالم وهادئ إلى أبعد المراحل.. توقفت عن الشجار وأنشأت صداقات، بل وفقدت الكثير من الوزن من بعدها.

- وما هي المشكلة في كل هذا؟

- ليلة رأس السنة يا دكتور، قمة رغبتي تأتي في هذا اليوم من كل عام.. يستيقظ الصوت في رأسي وأرى كل ما حولي رمادًا.. لا تشبعني حفنة من الأوراق المحترقة أو مشاهدة البوتجاز.. يتنامى الجوع في داخلي عامًا بعد الآخر والأسوأ أنه بدأ يقنعني أن حرق مكان به بضعة أشخاص ليس بفكرة سيئة على الإطلاق.. إنه يحوّلني لقاتل يا دكتور وأنا لا أستطيع مقاومته بعد الآن، لهذا طلبت مقابلتك الليلة بالذات، فهي الليلة الموعودة وأنا لا أعلم ما أنا بفاعل.

نظر إلى وجهي للحظات بينما هو يجمع الكلمات.. تراجع في مقعده ثم قال:

- أتعلم يا خالد؟ أنت لست مريضًا بالمرة.. هذا العالم يجب أن يحترق بالفعل عن بكرة أبيه.. لا عيب في محبوب يقابل محبوبه.. لم يكن من العدل ما حدث لك أبدًا وما تفعله الآن ليس إلا حقك الطبيعي في الثأر...

قاطعت كلماته صوت طرقات عالية على باب الغرفة ليبدو عليه الضيق.. انفتح الباب على أمي تكلمني:

- خالد، هل أنت نائم؟

- لا يا أمي أنا فقط أستريح بعض الشيء.

- هل معك أحد؟ لقد سمعت صوتًا يتكلم وأنا قادمة في اتجاهك.

أشرت لغرفتي الصغيرة وللكرسي الفارغ الموضوع بجانب المكتب، قائلاً:

- هل ترين أحدًا هنا غيري؟!

نظرت إلى الغرفة في دهشة.

- ولكني أكاد أجزم أني سمعت.. المهم، عمك مسعد سيتناول عشاءه، هل أحضّر لك شيئًا معه؟

- لا أنا سأخرج الآن وسآكل عندما أعود.

- ستخرج في هذا الوقت؟!

- لا تقلقي يا أمي فلن اتأخر، فقط زيارة لصديق قديم.

اتسعت ابتسامتي.

- مجرد صديق قديم.

هاتف منتصف الليل

الآن لا أحـد يسـتطيع لمسـك، فنحـن دومًـا مختبئـون وراء المعـدن والزجـاج.. أعتقـد أننـا نفتقـد هـذا الإحسـاس كثـيرًا، لهـذا نصطـدم ببعضنـا حتـى نتمكـن مـن الإحسـاس بـشيء مجـددًا.

Crash

انطلق الهاتف في الرنين قبل منتصف الليل بدقائق قليلة، في تلك الليلة فقط قبل أن تولد السنة الجديدة.. رفع أحمد السماعة في سرعة متمنيًا أن يكون أحد الأصدقاء يهنئه بحلول السنة الجديدة، قائلاً تلك الكلمة الخالدة «آلو» ليصل إلى أذنيه ذاك الصوت العميق الرخيم، قائلاً أول ما قال:

- تعرف إن القدر ده شيء عجيب أوي! إن من بين ملايين الناس ونمر التليفونات أضرب نمرة عشوائية -أي نمرة- وتطلع نمرتك إنت بالذات.. بذمتك مش شيء يحيّر.. ليه القدر اختارك إنت بس؟ ليه مختارش أي حد تاني؟

- أيوة مين؟ مين حضرتك؟

- أنا؟ أنا ولا حد.. مجرد واحد بيتسلى أو بيلعب، بس مين مبيلعبش.. كلنا بنلعب، كلنا بنتسلى ببعض.

- اطلع من دول، أنا قافشك يا معتز.

- للأسف كان نفسي مخيّبش ظنّك.. تصدق إني عمري في حياتي ما عرفت معتز! غالبًا معتز مش فاكر اسمك دلوقتي أساسًا.. النهارده رأس السنة بقى وإنت عارف.

- أومال إنت مين؟

- إنت مبتسمعش؟ قلتلك أنا مجرد واحد بيلعب.. واحد من اللي بيعاكسوا.. مجنون زي أي مجنون.. وكمان أديني بسليك في رأس السنة.

- أنا هقفل.

- لا إنت مش هتقفل، للأسف يا صديقي إنت عايز تتكلم زيي بالظبط.. زي كل الناس.. أنا النهارده بهديلك فرصة ذهبية، فرصة إنك تتكلم بجد، فرصة إنك تقول حاجة مع حد متعرفوش ولا يمكن هتعرفه.. كان ممكن ببساطة تقفل من غير ما تقول، بس لمجرد

إنـك قلـت «أنـا هقفـل».. كأنـك بتشـيل الذنـب مـن عـلى نفسـك.. كأني أنـا بكلمـك غصـب عنـك، بـس الحقيقـة المُـرّة إنـك يمكـن تكـون مسـتمتع بالمكالمـة، مسـتمتع بالـكلام في وقـت محـدش فاكـر فيـه حـد.

- إنت مغمّقها أوي.. فكها دي الناس كلها فرحانة.

- هـي غامقـة لوحدهـا.. عـارف! طـول عمـري بسـأل نفـسي ليـه النـاس بتحتفـل إن فيـه سـنة عـدت مـن حياتهـا، يمكـن بيحتفلـوا إنهـا خلصـت وخـلاص! يمكـن النـاس محتاجـة! محتاجـة تحتفـل بحاجـة، أي حاجـة وخـلاص.

- تعـرف إني سـألت نفـسي نفـس السـؤال، بـس دايمًـا بفكـر يمكـن بيحتفلـوا إن السـنة الجديـدة ممكـن تكـون أحـلى.

- يمكـن، بـس إيـه الـلي يضمنلهـم إنهـا تكـون أحـلى؟ بـس هـي كـده الدنيـا، مليانـة أسـئلة ملهـاش إجابـات منطقيـة.

- على رأيك، كتير.

- بـس تعـرف! أنـا دايمًـا بفكـر في سـؤال مـش لاقيلـه إجابـة لغايـة دلوقتـي، دايمًـا فكـرت إيـه الـلي ممكـن يخـلي إنسـان يقتـل؟ إنسـان عـادي زيـي وزيّـك وزي أي حـد.. ملـوش أي سـجل أو تفكـير إجرامـي.. إيـه الـلي ممكـن يخليـه يقتـل ويمكـن يقتـل أعـز النـاس بالنسـبة لـه؟

- وإيه الصعوبة في كده؟ مجانين طبعًا!

- تعرف إن كلهم قالوا على عبد الستار مجنون؟

- عبد الستار مين؟

- عبـد السـتار كان جارنـا.. موظـف عـادي، يمكـن أقـل مـن العـادي.. حياتـه روتينيـة بشـكل مفـزع، يصحـى الصبـح، يفطـر وينـزل عـلى شـغله السـاعة سـبعة بالثانيـة.. كنـت تظبـط عليـه سـاعتك.. متجـوز وحياتـه هاديـة، أو يمكـن فاكـر إنهـا هاديـة.. يرجـع مـن شـغله السـاعة تلاتـة بالدقيقـة.. وعمـره مـا فـوّت ماتـش للزمالـك.

- زمالك؟!

- آه الزمالك.. عمره ما كان متعصب في أي حاجة إلا موضوع الكورة ده، أهو بيفش غله يا أخي.. لغاية ما جه اليوم اللي اتكلم في التليفون من الشغل.

* * *

«أنا هتأخر النهارده شوية».. قالها عبد الستار في تأفف نظرًا لأنه لم يخلف روتينه أبدًا في مواعيده.

- خير يا خويا.

قالتها زينب زوجة عبد الستار في تساؤل.

- لا مفيش، رايحين نزور الريس بتاعنا بعد الشغل.. الراجل كبر وتعبان وعايز اللي يقف جنبه.

- وده بيته بعيد؟

- ده قاعد عند ابنه نواحي بنها كده.. على بالليل كده هكون عندكم.

- طب يا خويا تروح وتيجي بالسلامة.

أغلقت زينب الهاتف وزفرت في تأفف، لتقوم من مجلسها أمام التلفاز وتقف أمام المرآة متأملة ملامحها مليًا، وذهنها يمتلئ بالعديد من الأفكار قلما تزاحمت بتلك الكثرة في عقلها الصغير.. تنظر إلى الساعة، أنها ما زالت الواحدة والوقت يمر بطيئًا.. تنظر إلى نفسها مرة أخرى في المرآة وتتبدى في عينيها الحسرة، وفي ذهنها انطلقت أصوات عديدة تملأ جنبات أفكارها.

- هتجوزوني لعبد الستار؟ ده أكبر مني وعنده عيال كمان.

- يا بنتي أهو ضل راجل ولا ضل حيطة.

- بقى الجمال ده كله ياخده عبد الستار؟!

- قسمة ونصيب بقى يا حاجة.

- ما هو إنتي لو تسمعي كلامي كنت هنغنغك.

انطلقت تلك الفكرة الأخيرة في ذهنها مغلفة بصوت ذكوري لينتفض جسدها في قوة.. تنظر إلى نفسها وتدور أمام المرآة لتسترسل في أفكارها مرة أخرى.

- بقى الجمال ده كله يتمتع بيه عبد الستار المعفن!

- نهارنا نادي إن شاء الله.. يخرب بيتك يا عبد الستار.. حد يسيب القمر لوحده في البيت وينزل؟

- هتيجي.. هتيجي يا قمر.

ارتسمت ابتسامة على شفتي زينب وهي تمرر يدها عبر شعرها وتنظر إلى الساعة مرة أخرى، لتتجه تلك المرة إلى البلكونة تقف فيها تنظر إلى المارة وتتسلى بمناظرهم.. تنظر إلى الشرفة المجاورة وتتلاعب بشفتيها ابتسامة، ليخرج حامد جارها إلى شرفته مرتديًا جلبابًا فضفاضًا ويمسك بكوب شاي في يده.. يراها حامد فتتسع ابتسامته قائلاً:

- الله! هو القمر طالع بالنهار ولا إيه؟

تنظر زينب إلى الناحية الأخرى في سرعة وترسم على وجهها الصرامة.

- طب رد عليّ.. نظرة واحدة لأجل النبي.

تداري زينب ابتسامتها في سرعة.

- ده باينه عبد الستار مش قايم بالواجب ولا إيه؟

تزفر في شرود.

- يبقى مش قايم بالواجب يا عسل.

تتجه زينب إلى الداخل ليسرع حامد، قائلاً:

- هتسيبني كده وتدخل وأنا واقف لوحدي؟

- ما تلم نفسك يا جدع إنت.. مش كده.

تستدير زينب إليه معنّفة.

- أومال يبقى إزاي يا أبلة!

يضحك ضحكة عالية وتضحك معه زينب تلك الضحكة العصبية لتداري اضطرابها.

- أيوه كده خلّي الدنيا تضحك.

- إنت مش هتحرّم غير لما تدوق الشبشب.

- ده شبشبك أشيله فوق راسي يا قمر.

تبتسم زينب وتلين نوعًا مستندة على الإفريز.

- وبعدهالك يا جدع إنت!

- حامد.. محسوبك حامد.. أجيلك؟

تبتسم زينب مرة أخرى.

- يبقى هجيلك.

يختفى حامد من أمامها ليظهرعلى باب الشقة يرن الجرس.. تجري زينب لتفتح الباب في سرعة قائلة:

- ينيلك! إنت إيه اللي جابك؟!

- إيه اللي جابني؟! ده أنا اتهريت كلام من البلكونات.. زهقنا من النظري بقى، عايزين العملي.. هاتي حبة عملي بقى.

يميل عليها محاولاً تقبيلها، بينما تحاول التمنع دون رغبة فعلية منها، كأنما عقلها يرفض ولكن جسدها البض يقبل في ترحاب.

في الوقت ذاته كان عبد الستار منهمكًا في قراءة الجريدة عندما جاءه صديقه متضاحكًا معه قائلاً:

- إيه، هتتغلبوا النهارده يا عبده؟

- إيه ده؟! هو النهارده إيه؟

- لا مش ممكن، إنت يا عبده ناسي الماتش؟!

- لا، النهارده إيه صحيح؟

- الأربع يا سيدي.

- أنا مفتكرتش خالص موضوع الماتش ده.. لا ده أنا كده همشى

بقـى.. إنـت عـارف أنـا مبفوّتـش ماتـش.

- طب والريس؟

- ابقـى اعتذرلـه بـأي حاجـة يـا محمـود، وكـمان إنتـو كتـير مجاتـش عـليّ يـا أخـي.

انطلـق عبـد السـتار يحـاول أن يصـل إلى بيتـه قبـل الميعـاد المحـدد لبـدء المبـاراة، ليفتـح البـاب ويسـمع تلـك الهمهمـة بالداخـل تـأتي مـن غرفـة نومـه المغلقـة.. يمـشي بهـدوء إلى داخـل شـقته يحـاول أن يفتـح بـاب الغرفـة المغلـق، لـيرى بالداخـل ذلـك المنظـر الـذي لـن يفـارق مخيلتـه مهـما حيـا.. أن يـرى امرأتـه بـين يـدي رجـل غريـب وهـي تهمهـم.

- لا لا بطل جنان يا حامد.

لم يـدرِ عبـد السـتار مـا يفعـل إلا أن يتراجـع في فـزع إلى البـاب، مسـتعيدًا ذلـك المشـهد في رأسـه مـرات ومـرات، لينطلـق إلى الخـارج محـاولاً أن يسـتجمع شـتات نفسـه مـن جديـد، وبينـما خـرج مـن البـاب انطلقـت زينـب في الـصراخ.

- يا لهوي! ده زي ما يكون فيه صوت برة.

قام حامد مفزوعًا قائلاً:

- صوت إيه يا وليّة؟ لا عبد الستار ولا العيال هنا.

- أنا عارفة بقى! اخرج.. اخرج دلوقتي.

- خارج.. خارج.. ده إنتي وليّة نحس.

انطلـق عبـد السـتار يمـشي في الشـوارع لا يلـوي عـلى شيء.. كانـت الأفـكار تعصـف برأسـه، وتلـك الصـورة الأخـيرة تتكـرر مـرة بعـد أخـرى.. توقـف فجـأة وانطلـق إلى بيتـه وفي رأسـه اعتملـت فكـرة واحـدة، نعـم لا بـد أن يثـأر لشرفـه.

* * *

- وبعدين؟

قالها أحمد في سماعة الهاتف لمحدثه يستحثه أن يكمل الكلام.

- حط نفسك مكانه.. تقدر تقولي ممكن تعمل إيه؟

* * *

ولا تزال الأفكار تعصف برأس عبد الستار، ليجد نفسه فجأة أمام باب بيته القديم.. مليء بالاهتراء والنتوءات كحياته، الكذبة التي عاشها ظنًا منه أنها الجنة.. دخل من الباب ليطالعه وجه زينب قائلة:

- إيه اللي أخّرك كده يا عبد الستار؟

ينظر إلى وجهها مليًا.. كم يحبها! كيف خانته وقد كانت كل الحياة؟

- عبد الستار! مالك؟

كيف يرد عليها بعد ما فعلت.. فكر أن يسحب سكينًا من مطبخه ويعمل فيها الطعن.. لكنه لن يفعلها، لن يقوى أن يفعلها.. يجب أن يحاول أن يبدو طبيعيًا.

- مفيش.

قالها وهو متجه إلى الغرفة التي ظن أنها حملت كل أحلامه وسعادته الحقة.

- طب مش هتاكل؟

قد أكلت الكثير من ثمر الخيانة.. هكذا فكر.

- لا مليش نِفس.. أنا هنام.

يدس جسده في الفراش ويفكر كم تدنس هذا الفراش! عشر، عشرون، مئة مرة.. يسمع أنفاسها المضطربة تقترب من جانبه.. تنام بوجه الملاك بعد أن أخفت شيطانها الكامن.. تنظر إليه فيغمض عينيه في سرعة متظاهرًا بالنوم العميق.. يرى المشهد في عقله مرات ومرات.

- لا لا بطل جنان يا حامد.

تنفذ دمعة من بين عينيه المغمضتين ويحاول ألا يظهر صوته كيلا تصحو من جانبه.. يحاول أن يستمع إلى صوت أنفاسها التي انتظمت..

ينظـر إلى السـاعة التـي أشـارت إلى الثانيـة بعـد منتصـف الليـل.. يرفـع جسـده مـن الفـراش بخفـة.. قدمـاه عـلى الأرض.. يهـرول إلى المطبـخ ويرجـع حامـلاً تلـك الزجاجـة الكبـيرة.. يقـص مـن الشريـط اللاصـق ويضـع منـه عـلى جانـب فمهـا بحنـان مبالـغ.. يسـكب الكيروسـين مـن الزجاجـة التـي بـين يديـه عـلى جسـدها والفـراش في سرعـة.. تصحـو زينـب مفزوعـة.

- إنت بتعمل إيه يا عبده؟

كـم يعشـق عفويتهـا وقلـة حيلتهـا! يحـاول الـكلام، يجـد الكلـمات تخرج مـن فمـه ودموعـه تمـلأ وجهه.

- ليـه يـا زينـب؟ أنـا حبيتـك بجـد.. كنتـي كل حاجـة.. لـو قلتـي اسرق كنـت سرقـت عشـان خاطـرك، كنـت ممكـن أرمـي نفـسي في النـار لـو حبيتـي.. ليـه تخونينـي يـا زينـب؟ ليـه؟

الآن تفهم كل شيء.. تحاول الكلام لكن دموعها تسبقها.

- أ.. أنا.. أ...

- شششش.. معادش فيه فايدة من الكلام.

يضـع إصبعـه عـلى فمهـا محكـمًا الشريـط اللاصـق ولا يسـمع منها سـوى الهمهـمات.. ينظـر إلى عينيهـا مـرة أخـرى راسـمًا ابتسـامة مليئـة بالحـب عـلى وجهـه.

- يمكن عمري ما قلتهالك، بس.. بحبك أوي.

قالهـا منهيًـا كلماتـه بـأن أشـعل عـودًا مـن كبريـت.. ينظـر إلى النـار في انبهـار.. ابتسـامة أخـرى صـدرت منـه ورمـى العـود مـن يـده.

* * *

- بعدهـا كل الجـيران قالـوا عبـد السـتار اتجنـن بعـد مـا لقيـوه قاعـد بيعيـط في جنـب الأوضـة والسريـر مولـع بمراتـه.

قالها المتحدث الغامض في التليفون، ثم فكر وأكمل:

- بـس لأ، عبـد السـتار عمـره مـا كان مجنـون.. يمكـن الحـب هـو الـلي

جننه.. يمكن الخيانة هي اللي طيّرت اللي فاضل من عقله، بس برضو لأ، مش الجنون هو الإجابة عن السؤال، أكيد حاجة تانية.

- يمكن مش الجنون فعلاً، بس لو مكانش الجنون ممكن يبقى إيه؟

قالها أحمد محاولاً أن يفكر.

- وكمان الجنون مش شرط يكون سببه الخيانة، فيه أسباب تانية كتير.

- خليني معاك، زي إيه مثلاً؟

- المخدر مثلاً.

- طب ما كل واحد فينا مختار المخدر بتاعه.. ناس مخدراتها التليفزيون.. ناس تانية السُلطة.. ناس كتير مخدرها الجنس.. كلنا مدمنين يا صاحبي وكل واحد عايش جوة إدمانه.. يبقى كلنا مجانين؟

- أنا مقصدش كده.. أنا قصدي المخدرات.. التوهان يعني.

ضحك الرجل المجهول ربما لأول مرة منذ بداية المحادثة، ثم قال:

- فكرتني بسعيد، كان دايمًا يقول أحلى حاجة في الدنيا التوهان.

- وسعيد ده إيه حكايته كمان؟

* * *

- أحلى حاجة في الدنيا التوهان.

قالها سعيد في تلك الليلة جالسًا مع أصدقائه يدخنون تلك السجائر الملفوفة المحشوة، وأمامهم طبق مليء بالبانجو والتبغ، وسعيد يجلس وسطهم وعلى وجهه تبدو علامات النشوة.

- أحلى حاجة في الدنيا التوهان.. وأفوق ليه وأنا من يوم ما وعيت على الدنيا وأبويا في الإمارات؟ أفوق ليه وأنا شايف أمي عايشة في النادي وبتعمل شوبينج؟ أفوق ليه وأنا عارف إن أبويا عايش حياته بعيد عننا وكل أسبوع بيغيّر ست؟ أفوق ليه وأنا شايف أمي عارفة

أبويا بيعمل إيه وبتردله الألم هنا اتنين؟ اتولدت ولقيت معايا فلوس زي ما أنا عايز، يمكن أكتر كمان.. أبويا يرجع الأسبوعين اللي بيرجعهم في السنة يحشيلي جيوبي فلوس.. ميمنعش عربية جديدة، ده غير مغامراته اللي بيحكيلي عنها.. تصوروا؟ عمره ما عرف أخباري، يتهيألي مكانش بيعرف أنا في سنة كام.. مكنة فلوس.. أنا أبويا مكنة فلوس.

قال أحد أصدقائه في نفس الحالة:

- ماشي يا ابن مكنة الفلوس، ما تسلفني أبوك شوية.

أكمل سعيد وكأنما لا يسمع:

- حتى أمي عايشة مع صاحباتها.. لا يوم عرفت أنا نمت إمتى ولا صحيت إمتى.. اوعوا تفتكروا إن أصدقاء السوء والكلام ده همّ اللي خلوني أشرب! أنا شربت عشان عايز أشرب.. عشان مش عارف أعمل إيه.. بعدها لقيت أصحاب السوء دول و.. ولقيتكوا يا ولاد الـ.. أهو مش عارف مصاحبيني عشان الكيف ولا مصاحبيني عشان فلوسي.. حتى البنت اللي بحبها، ساعات بحس إنها عشان سيجارة ممكن تفركش معايا.. اسمعوا الكلام، أحلى حاجة في الدنيا التوهان.. عارفين! ساعات بحس إننا شخصيات في رواية.

رد عليه أحد الجلوس:

- أيوه كده يا أبو السعد، ده إنت عليت أوى.. هو الصنف ده عالي أنا عارف.

أكمل سعيد:

- لا صحيح، ساعات بحس إننا مش ناس بصحيح.. شوية شخصيات في رواية، في فيلم.. ساعات بزعق بأعلى صوتي وأقول للمؤلف ليه خليتني أنا المدمن اللي في الرواية؟ ليه مطلعتنيش ظابط ولا دكتور ولا حتى خليتني الراجل اللي بيموت في أول الرواية؟ وآديني معاكو بلف وأشرب.. خدنا إيه يعني من الفايقين؟ لفلنا سيجارة تانية يا إتش.

رد عليه صديقه هشام:

- لا إنت كده أفورت يا سعيد.. قوم روّح أحسن.

- نقوم.. منقومش ليه! هو الباب منين؟

قام سعيد من مكانه يجرجر قدميه بلا وعي تقريبًا، يحاول الخروج من الباب ولكن كأنما تذكر، فقال:

- هشام، معاك تذاكر؟

- آه بس كده الحساب تقل.

- يا عم بكرة أجيبلك فلوسك، هات بس تموين يومين.

يبحث هشام في جيوبه ويخرج ورقتين ملفوفتين بعناية، يسلمهما لسعيد، ولسان حاله يسأل: هل سيمر هذا اليوم على خير؟

* * *

دخل سعيد من باب شقتهم التي تقع في إحدى الأحياء الراقية، فطالعه وجه أمه تراقبه في قلق لينظر إليها في استهتار قائلاً:

- مساء الخير يا ماما.

لم ينتظر إجابتها ورمى بجسده على مقعد الصالة الوثير.. أغمض عينيه محاولاً الاسترخاء ليفتحها على وجه أمه التي جلست في مقابله.. يقوم من مكانه ملتقطًا تفاحة من طبق الفاكهة الذي ارتمى على جانبه سكين.. يمسكه ويبدأ في التقطيع، لتعاجله أمه بالكلام:

- كنت فين؟

- ما إنتي عارفة إني كنت عند أصحابي، وبعدين من إمتى بتهتمي يعني؟

يلقي بتلك الشريحة في فمه.. كم يكرهها!

- كنت بتعمل إيه عند أصحابك؟

ينظر إليها في هدوء.

- كنا بنلعب.

أخرجت ورقة ملفوفة مليئة بالمخدر لتضعها أمام وجهه.

- النهارده لقيت دي في أوضتك وسط كتبك، إيه دي؟

ينظر إليها باستخفاف وابتسامة تلعب على شفتيه، ويعود من جديد لتقطيع التفاحة.

- رد عليّ، إيه دي؟

- زي ما إنتي شايفة.

يعطيها ظهره ولا يعيرها اهتمامًا، مكملاً:

- هيروين.. مخدرات يعني.

- يا نهارك أسود! بتشم يا سعيد؟! آدي آخرة دلع أبوك فيك.. بتشم يا كلب؟! أنا لازم أقول لأبوك.

- ياه! طب يا ريت بقى وإنتي بتقوليله تقوليله على اللي بتعمليه مع أونكل صلاح وأونكل محمود.. آه، وأونكل كريم كمان.

يقولها مواجهًا إياها بأكبر ابتسامة استخفاف ملأ بها وجهه.

- اللي بيته من إزاز يا... يا ماما.. كبري دماغك، وزي ما أنا بفوّتلك فوّتيلي.

- أنا بيتي من إزاز يا كلب يا واطي؟ فاكر إني هخاف منك؟ ده أنا أفعصك تحت رجلي.. ده أنا أدبحك بالسكينة اللي في إيدك دي.. بتشكك في شرفي يا ابن الـ...

- ها ها.. اشتمي.. اشتمي نفسك كده.. ولا تحبي أشتم أنا؟

لم تتمالك أمه نفسها إلا وهي تنهال على وجهه بالصفعات وتمسك به من ياقته.

- اوعي.. اوعي سيبيني.. يووووووووه!

يطوح يده ذات اليمين فيكسر تلك المزهرية العتيقة على الطاولة.. يطوحها ذات اليسارفيقلب طبق الفاكهة على الأرض وهو ما زال متعلقًا بالسكين في يمينه.

- قلتلك سيبيني.. سيبيني.

لم يـر نفسـه إلا وقـد أغمـد السـكين في جانبهـا.. لم يشـعر إلا وهـي تتهـاوى بـين يديـه والحيـاة تتـسرب مـع دمائهـا.. لم تحملـه قدمـاه، فنـزل عـلى الأرض مـع جسـدها المتهـاوى يلملـم شـعرها بجانبهـا وتبـدو عـلى وجهـه ملامـح الذهـول مـما فعلتـه يـداه.

- ماما! ماما! اصحى يا ماما خلاص هبطّل، واللهِ هبطّل.. ماما! ماما!

* * *

- بـس برضـو مـش ده الدافـع.. يمكـن دي حـالات فرديـة زيـادة عـن اللـزوم.. مـش معقـول مفيـش أسـباب تانيـه للقتـل.

قالها المتحدث الغامض في التليفون.

- يمكـن الظلـم سـاعات يخـلي إنسـان يقتـل، سـاعات الظلـم ممكـن يحـول إنسـان لوحـش؛ ميشـوفش أي حـد غـير الـلي ظلمـه.

* * *

اندفـع يـاسر عـلى السـلالم وطفـق يطـرق بـاب الشـقة التـي اسـتقر عـلى بابهـا الرقـم 7، لتفتـح لـه تلـك الفتـاة التـي ظهـر مـن هيئتهـا أنهـا الخادمـة، ليزيحهـا مـن طريقـه قائـلاً:

- هو فين؟ فين؟

- يا لهوي! الحق يا سيدي.

بـدأ يبحـث كالمجنـون داخـل الغـرف حتـى وصـل إلى غرفـة النـوم، ليجـده بداخلهـا مختبئًـا وراء أريكـة كبـيرة.. يقبـض عليـه مـن ياقتـه.

- قـوم.. قـوم.. دايمًـا جبـان.. دايمًـا عمـرك مـا تـضرب الواحـد إلا مـن ضهـره زي الكلـب.

يخـرج مسدسًـا مـن حزامـه ويوجهـه إليـه ويـداه ترتعشـان.. الآن يحقـق انتقامـه الـذي سـهر ليـالي طويلـة يحلـم بـه.. الآن يسـلب منـه حياتـه كـما

سلبها هو منذ سنوات مرت عليه كقرون.. كم كان يتمنى أن يطيل عذابه ليذيقه مما شرب من كأس الظلم! لكن للأسف ليس أمامه إلا فرصة واحدة.. يراه يرتجف.. يعرض عليه أن يعوّضه، ولكن عما يعوضه! يداه ترتجف وفي ذهنه تتراءى عشرات الصور.. الآن يحقق انتقامه.. يحكم التصويب و... انطلقت تلك الطلقة ليهز صوتها أركان ذلك الحي الراقي.

* * *

- بس لأ.. تعرف! دايمًا فكرت إن السبب الأساسي ورا كل المصايب هو يمكن التفاصيل الصغيرة والتوقيت الغلط.

قالها المتحدث في الهاتف، ليرد عليه أحمد في عدم فهم.

- تفاصيل صغيرة إزاي يعني.

- تعرف إن لولا التفاصيل الصغيرة دي يمكن مراة محمود كانت تبقى عايشة لغاية دلوقتي؟

* * *

- اصحى يا محمود؛ إنت اتأخرت على الشغل.

قالتها منار زوجة محمود وهي تقف على طرف الفراش.

- محمود اصحى الساعة بقت تسعة.

- إيه؟

قالها محمود مفزوعًا، لينتفض من نومه.

- إيه! بالراحة.. مالك يا حبي؟ ده إنت من يوم ما اتجوزنا وإنت عمرك ما عملتها واتأخرت كده في النوم.. تعبان؟

- مش عارف، بس يلا أهي جت من فوق.. النهارده أجازة.

غاص في الفراش مرة أخرى ليكمل نومه.

- إيه! إنت هتنام؟!

- مممممممم.

- لا لا، قوم بطل كسل.. قوم افطر عشان هتوديني عند مامي.
- مامي؟! أنا كنت بقول أروح الشغل أحسن.
- حرام عليك! دي بتحبك أوي حتى.
- بس ده مشوار لغاية أكتوبر.
- يعني يرضيك يا حبيبي أروح لوحدي وإنت موجود؟!
- ماشي يا عم.. خلاص هتنزل المرة دي بس أنام شوية كمان.
- يلا قوم بقى بلاش دلع.

* * *

- محمود كان بيحبها أوي.

أكمل المتحدث الغامض في التليفون.

- كان دايمًا بيحس إنه في حلم وخايف يصحى منه.. كان كل ما يبصلها يحس بسعادة ميعرفش ليه، بس يمكن ميفتكرش حياته من قبلها.. يمكن بص لعينيها وهو سايق.. يمكن فكّر فيها.. يمكن فكر في حياتهم مع بعض.. يمكن تاه للحظة مشافش فيها العربية النقل من قدامه.. سمعها بتقول حاسب يا محمود بس يمكن متأخر شوية.. يمكن لحظة واحدة وقرار فرقوا في حياته و.. حياتها.. كان دايمًا بيحب يشوفها، بس اللحظة اللي بعدها شافها غرقانة في دمها.

- وإيه علاقة الحكاية دي بالتفاصيل اللي بتقول إنها السبب؟

- ما هي الحكاية كلها في التفاصيل.. يمكن لو الريس بتاع عبد الستار مكانش تعبان أو عبد الستار مكانش اتصل بزينب.. يمكن لو صاحبه مجاش ونبهه للماتش.. يمكن لو كان عبد الستار أساسًا مبيحبش الكورة.. يمكن زينب كانت عاشت.. يمكن كانت خافت تخونه وطردت حامد لو عبد الستار بس اتأخر خمس دقايق.. يمكن لو سعيد مكانش ساب المخدرات في أوضته.. يمكن لو كان أبوه مش في الامارات.. يمكن أساسًا لو ملقاش طبق الفاكهة وعليه السكينة.. يمكن أم سعيد كانت

عاشـت.. يمكـن سـعيد كان بطّـل مخـدرات مـن الأسـاس.

- بس مش معقول كل حاجة في التفاصيل.

- يمكـن لـو محمـود صحـي بـدري زي عادتـه.. يمكـن لـو أقنـع منـار إنهـا متروحـش لأمهـا.. يمكـن لـو العربيـة مدارتـش مـن أول مـرة واتعطـل دقيقـة واحـدة.. يمكـن لـو مكانـش بيحبهـا أوي كـده.. يمكـن منـار كانـت عاشـت.. يمكـن كان رزقـه ربنـا بطفـل جميـل شـبهها.. يمكـن كان بقـى لحياتـه قيمـة.. يمكـن مكانـش قـرر إنـه ينهيهـا في لحظـة يـوم رأس السـنة.. يمكـن مكانـش أخـد كل الحبـوب الـلي في العلبـة الفاضيـة قدامـه.. يمكـن مكانتـش المكالمـة دي هتحصـل مـن الأسـاس.

- مكالمة إيه؟

- المكالمـة دي.. يمكـن مكنتـش فكـرت إني أضرب أي نمرة عشـوائية أتسـلى لغايـة مـا المفعـول يشـتغل.. بيقولـوا إن الحبـوب مفيهـاش ألم.. هنـام، بـس مـش هقـوم.. أنـا حاسـس إن راسي بتـدور، شـكلها بـدأت تشـتغل.

- استنى.. استنى.. قول إنت مين ولا فين يمكن ألحقك.

- الحقوا نفسكو الأول.

- بقولك استنى اوعى تقفل.

- أقولك على نكتة؟

- نكتة إيه وهباب إيه بس!

اتسعت ابتسامة محمود وهو يقول:

- إحنا.. إحنا النكتة.

- آلو.. آلو.. رد عليّ.

سبعة

في القرن السادس الميلادي أنشأ البابا جريجوري الأول قائمة احتوت على السبع خطايا المميتة.. الحسد، الشره، الغرور، الشهوة، الكسل، الجشع، والغضب.

- استيقظوا أيها الخطاة فقد حان وقت الحساب.

ترددت تلك العبارة في غرفة ذات باب حديدي وحيد، فترددت بين الجدران الثقيلة للحظات بدا أنها ستستمر إلى الأبد.. بدا أن العبارة لم تؤثر على مسامع الأشخاص الستة الراقدين على أرض الغرفة، فتكرر الصوت الذي بدا كأنه يأتي من كل مكان.

- استيقظوا.

تململت تلك المرأة ممتلئة الجسد منكوشة الشعر في رقدتها، رفعت جسدها لتجلس في مكانها تمسك برأسها وهي ما زالت مغمضة العينين.. عاقدة حاجبيها، فتحت عينيها ببطء لتتسعا في رعب إذ رأت الأجساد المتكومة من حولها.. ندت منها صرخة رفيعة أفاقت الرجل النائم بقربها، فقام واقفًا في سرعة ينظر حوله في كل الاتجاهات متخذًا وضعًا قتاليًا متحفزًا.

- أين نحن؟ ومن أنت؟

سأل المرأة في غلظة فلم ترد.. تحسس عنقه الذي شعر بما يثقله فاصطدمت أصابعه بالمعدن البارد الذي التف حول رقبته.. نظر إلى المرأة التي ما زالت جالسة، فوجد طوقًا مماثلاً حول رقبتها.. دارت عيناه تتفقد الأجساد الأربعة الراقدة من حوله في الغرفة الضيقة التي زين طوق معدني رقبة كل منهم، فتعرف إلى أحدهم.. تحرك في سرعة إلى تلك المرأة مليحة الوجه ونزل على ركبته ممسكًا بها من كتفيها ليرفعها عن الأرض.

- رشا! هل أنتِ بخير؟

لم تتحرك، فضرب خدها برفق بينما ترتاع ملامحه.

- رشا، أفيقي.. هل أنت بخير؟

فتحت عينيها برفق سائلة إياه:

- مراد، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

نظرت حولها في اندهاش لتقع عيناها على المرأة الأخرى، فسألتها في تعجب:

- نيفين.. أين نحن؟

هزت نيفين رأسها في سرعة علامة على أنها لا تعرف، بينما تحرك مراد بين الثلاثة الآخرين يوقظهم في سرعة.. استيقظ اثنان منهم في سرعة بينما استغرق مراد خمس دقائق لإيقاظ الثالث ذي البدانة المفرطة، ودقيقتين أخريين لمساعدته على اتخاذ وضع الجلوس.. دارت أعين الجميع المندهشة في وجوه الآخرين، بينما الأسئلة المعلقة في الهواء لا تحتاج إلى من يطرحها.

- استيقظوا أيها الخطاة فقد حان موعد الحساب.

ترددت تلك العبارة عبر مكبرات الصوت الخفية التي زرعت في الجدران، فوقف الجميع ينظرون حولهم في دهشة، عدا أحد الرجال الذي بدا على وجهه الفزع أكثر من الدهشة.. أكمل الصوت بنبرة حازمة:

- دعوني أجيب كل تساؤلاتكم قبل أن تتفوهوا بها.. أنتم الآن في مكان خاص أعددته مخصوصًا على مدى الأشهر الستة الماضية لاستقبالكم فيه.. بعضكم يعرف الآخر والبعض الآخر لا يعلم عن الآخرين شيئًا، ولكن كلكم تشتركون في شيء واحد.

سكت للحظات ثم أكمل:

- كلكم كنتم علامات سوداء في حياتي. كل منكم دمّر جزءًا في داخلي، واليوم جاء الوقت لأرد لكم الجميل كما أحببت دائمًا.. كل منكم يحمل خطيئة كبرى واليوم ستتطهرون منها عبري.

تردد صوت سعال للحظات ثم أكمل الصوت:

- كل منكم يحمل طوقًا حديديًا على رقبته غير قابل للفتح إلا

بمفتاحه الخاص، الذي أحتفظ به معي، في كل طوق شحنة متفجرة صغيرة قادرة على تفجير رؤوسكم في جزء من الثانية، وهذا معناه أنكم لستم إلا لعبة بين أصابعي؛ ستنفذون كل ما أقوله بالحرف الواحد وإلا...

نظر الجميع بعضهم إلى بعض دون أن ينبسوا بكلمة، فأكمل الصوت:

- في هذه الحجرة باب وحيد يقود إلى مجموعة من الحجرات بعضها وراء بعض، وفي كل حجرة سيتم اختبار خطيئة كل منكم على حدة.. أحد الخطايا في النهاية سيتمكن من عبور خط النهاية بأمان، وسيجد مليون دولار عند باب الخروج.. مسابقة الخطايا كما أحب أن أسميها.

- ما الذي يجعلك تظن أننا سنفعل ما تريد أيها المأفون؟

نطقها مراد في غضب، فردت عليه نيفين مضيّقة عينيها:

- انتظر قليلاً، فأنا أعلم صاحب هذا الصوت جيدًا.. عزيز! هل هذا أنت؟

- لن يرد عليكِ، فهذا الصوت يبدو مسجلاً.

قالها ذلك الرجل النحيف الذي نظر إلى الأرض من فوره مكملاً:

- أظن هذا.

لحظات من الصمت خيّمت على الجميع، حتى قال مراد في غضب:

- كنت أعلم أني لا يجب أن أذهب إلى حفل رأس السنة السخيف هذا.. كأس واحد من الخمر لأجد نفسي هنا، لا بد أن أحدهم وضع لي نوعًا من المخدر فيه قبل أن أشربه.

قبل أن يتكلم مخلوق آخر تردد ذلك الصوت من جديد قائلاً:

- لديكم الآن دقيقة واحدة للخروج من الغرفة عبر الباب.

مع انتهاء كلماته أضاء ميقاتي إلكتروني فوق باب الغرفة المفتوح يعد تسعًا وخمسين ثانية، ويسمع الجميع صوتًا هادرًا من حولهم تبدأ معه جدران الحجرة في الحركة نحو بعضها، منذرة بسحقهم بينها..

تحرك الرجل النحيف في سرعة ناحية الباب المفتوح دون أن يبدو عليه الاندهاش، بينما ساعد مراد والرجل الآخر الرجل الجالس على الأرض في القيام ليعبروا به الباب بعد أن سبقتهم النساء إلى الداخل.. انغلق الباب من ورائهم بعد مرورهم جميعًا، ليسمعوا صوت ارتطام جداري الحجرة ببعضهما من ورائهم لتتجمد الدماء في عروقهم.

دارت الأعين في سرعة في الغرفة الفارغة إلا من باب مغلق على الطرف الآخر للحجرة، وجهاز بدا ككرسي الكشف الذي تجده عند طبيب العيون، أمامه كرسي صغير ومعلق على الجهاز ورقة صغيرة كتب عليها بخط كبير «نيفين».. لحظات مرت في صمت بينما تقترب نيفين من الجهاز وقلبها يرتجف رعبًا، وكل الأعين معلقة بها.. تردد الصوت مرة أخرى من حول الجميع:

- لا بد أنك تعرفتِ على صوتي الآن يا نيفين، ربما تعرفت عليّ أسرع من زوجتي رشا، لأننا تربينا معًا منذ نعومة أظفارنا.. فكرت إكرامًا لصلة القرابة التي بيننا أن يكون اختباري الأول إهداء لك.

ابتلعت ريقها بصوت مسموع، بينما أكمل الصوت:

- الحسد هو خطيئتك الأزلية، تعلقت به روحك المسمومة منذ ولادتك.. كنت دومًا ما تنظرين إلى ما في أيدي الآخرين مهما كان ما في يدك أنت.. لم تقنعي أبدًا بما معك ودومًا ما سممتِ حياتي بنظراتك إلى ما أملكه متمنية زواله لصالحك.. حتى اليوم الذي جئت فيه تخبريني بخيانة زوجتي، لم يكن دافعك صالحي، بل لأنه أرضى شعورك المريض بالتفوق.. عيناك كانت دائمًا هي السبب في شقاء الناس، واليوم اختباري لك بأن أنزعهما منك تطهيرًا لك.. أمامك ثلاثون ثانية لوضع وجهك القبيح في هذا الجهاز وسيقوم الجهاز بالباقي.. افعلي هذا وسينفتح الطوق الذي على رقبتك تلقائيًا، امتنعي ستموتين.. الخيار بيدك.

مع انتهاء كلماته أضاء ميقاتي فوق الجهاز يعد ثلاثين ثانية، بينما

ظهر مثقابان رفيعان من الجهاز يدوران في جنون.. انتقلت كل الأعين ناحيتها في ارتياع، فصبت غضبها على رؤوسهم.

- لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ لن أترك مجنونًا مثل هذا يملي عليّ ما أفعله.. فليذهب إلى الجحيم هو ولعبته، فأنا لن أفقأ عيني بيدي.

صاحت تكلم الحوائط من حولها:

- اقتلني الآن أيها المجنون.. هيا.

رأت الميقاتي يشير إلى خمسة عشر ثانية متبقية، فبدأت ارتجافة تزحف على جانب فمها وانهمرت الدموع من عينيها غزيرة، قائلة في توسل:

- أرجوك يا عزيز انهِ هذا الجنون، هل ستقتل ابنة عمك؟

بدأ بكاؤها يتحول إلى نشيج بينما تتناقص الثواني الباقية في سرعة، تقول في صوت صارخ:

- أرجوك.

- انتهى الوقت.. يبدو أنك أول ضحايا هذه الليلة.

تردد الصوت بينما أعلن الميقاتي نهاية المُهلة، فأغمضت نيفين عينيها في قوة قائلة في ضعف:

- أرجوك.. من أجل أولادي.

سمع الجميع صوت فرقعة مكتومة تناثرت معها أجزاء من رأس نيفين في أنحاء الحجرة، بينما أغمض الجميع أعينهم وانحشر صراخهم في حلوقهم محاولين تفادي المنظر، لم يمهلهم الصوت، فقال بآلية إذ انفتح باب الحجرة الآخر بصوت عنيف وأضاء ميقاتي جديد من فوقه.

- الآن وقد عرفتم أني لا ألعب، أمامكم دقيقة واحدة للخروج من هذه الحجرة.

دقيقة أخرى مرت وانغلق من ورائهم الباب الذي انفتح للتو، مع صوت احتضان الجدران لبعضها وانغلاقها على جثة نيفين التي تركوها

هناك.. كانت الغرفة مثل سابقتها لها باب آخر مغلق، علم الجميع أنه سينفتح مع موت واحد آخر، وتربض في منتصفها منضدة عالية زيّنها طبق كبير تراصت عليه أربع قطع كبيرة من الكعك، وورقة أخرى كتب عليها بحروف دامية «أمين».. دخلها الجميع مطرقي الرؤوس يتحركون في آلية، يفكرون في مصيرهم الأسود الذي قادتهم إليه هذه الليلة، التي بدؤوها في عوالمهم ولم يخطر في أسوأ كوابيسهم أن تنتهي بتلك النهاية.. غمغم مراد أخيرًا:

- لقد فجّر المجنون رأسها.

لم يرد عليه أحد، كأنهم لم يسمعوه، فكل منهم مشغول في عالمه الداخلي، كأنه يوم القيامة والكل يقول «نفسي.. نفسي» لا يأبه بأحد.. لم يمنحه الصوت فرصه لتكرار عبارته:

- أمين.. غريمي العتيد.. الاختبار الثاني من نصيبك أيها البدين.

ارتسمت ملامح الرعب على وجه الرجل مفرط البدانة عندما سمع اسمه.. لم تستطع قدماه حمله، فجلس في مكانه يستمع إلى بيان إعدامه.

- الشره يا عزيزي.. أنت تمثل الشره بكل معانيه، دومًا أصابك الشره وسال لعابك تجاه كل ما قد يدفعني إلى الأمام في عملي.. لم تتوانَ عن استخدام أساليبك القذرة ورأسك المريض لتقويض كل ما أسعى من أجله.. لم يفرحك شيء في هذه الحياة إلا أن تأخذ مني فرصة لتبتلعها في بطنك، ولم تستطِع أبدًا أن تتركني وشأني، مهما فعلت لأبتعد عنك أجدك أمامي تمد يدك وتأكل ما في يدي.. لم ينافس حبك تحطيم أحلامي إلا حبك للطعام، الذي جعل قدميك غير قادرة على حمل جسدك الثقيل.

ظل أمين محدقًا في الفراغ كمن ذهب عقله، لا ينظر إلى شيء بينما الصوت يكمل:

- دومًا.. ما أظهرت أدنى اهتمام بمن حولك، كأن طبقات الشحم حول قلبك منعته من الشعور بشيء، أو أن شرهك للطعام قضى على حبك لباقي الأشياء.. اليوم سنختبر حبك للطعام واهتمامك بالآخرين، أمامك أربع كعكات تمثل الأشخاص الأربعة الذين ترافقهم.. كُل الكعك وينتقل الجميع إلى الغرفة الأخرى دون أذى.. كلما تركت واحدة سأقتل شخصًا عشوائيًا مكانها، أو يمكنك الامتناع عن الأكل وساعتها سأقتل كل الآخرين بتفجير أطواقهم دونك وأعلنك فائزًا.. أمامك دقيقتان للقرار، ومعلومة أخرى نسيتها في البداية.. كعكك مليء بالدود من الداخل مثل اللحم العفن لضحاياك، الذي طالما تناولته في حياتك.. شهية طيبة.

بدأ الميقاتي في العد تنازليًا، بينما تبادل الأربعة الواقفون النظرات بينهم في هلع.. ألقوا نظرة على أمين الذي لم يتحرك من مكانه وظل ينظر إلى الفراغ.. نصف دقيقة مرت على هذا الوضع أنهاها الرجل النحيل بأن تحرك إلى الطبق حاملاً قطعة من الكعك.. نظر إليه مراد قائلاً:

- ماذا تفعل يا رجل؟

- لن أترك هذا المخبول ينهي حياتي من أجله.

- هل ستجبره على أكل طعام مليء بالدود؟

- فليأكل طينًا إذا لزم الأمر.. هل أنت مستعد لانفجار رأسك من أجله؟

كان الرجل الآخر قد انتهج نهج من سبقه وحمل قطعة أخرى في يده متوجهًا إلى أمين، الذي جلس بلا حراك والدموع متجمدة في عينيه.. اقترب الاثنان من الرجل الجالس بحرص بينما الميقاتي يشير إلى انتهاء نصف الوقت.. رفع أمين عينيه في وجوههم قائلاً بصوت مختنق:

- لن آكل الدود من أجلكم.

كأن هذه كانت الإشارة؛ قفز الرجل النحيف نحو أمين يحاول حشر

قطعتـه في فمـه الـذي قـاوم باسـتماتة، فوجـيء بالرجـل الآخـر يكبـل يـدًا مـن يديـه يحـاول حـشر قطعتـه الأخـرى في فمـه الكبـير، ومـراد يـصرخ:

- ماذا تفعلان؟

رد عليه الرجل النحيف:

- احمل قطعتك وتعالَ لمساعدتنا أيها الأحمق في تكبيل هذا الثور.

صرخـة نسـائية انطلقـت وسـط الأصـوات، كانـت لرشـا التـي قفـزت في وجـه أمـين ودفعـت بيدهـا في فمـه بقطعتهـا التـي أخذتهـا مـن الطبـق.. نقـل مـراد عينيـه بـين المتصارعـين والميقـاتي الـذي أشـار إلى نصـف دقيقـة متبقيـة مـن المهلـة.. أغمـض عينيـه وأخـذ بقطعتـه في يـده وانضـم إلى حلبـة الـصراع، مكبـلاً يـد أمـين التـي تحـاول الإفـلات.. الثـواني تفـرغ مـن الميقـاتي ولا صـوت سـوى اللهـاث والصرخـات المكتومـة.. أمـين يحـاول التنفـس فيفتح فمـه ليدفـع فيـه بالمزيـد مـن الطعـام.. خمـس ثـوان تبقـت ومـراد يحـشر مـا تبقـى في يـده في حلـق أمـين، الـذي قـال بصـوت خفيـض لم يسـمعه أحدهـم:

- سأموت.. سأموت.

تعلقـت الأعـين بالميقـاتي، الـذي أعلـن انتهـاء المهلـة بعـد ثانيتـين، ولم يـر أحـد منهـم وجـه أمـين الـذي تحـوّل إلى الاحمـرار وعينيـه التـي سـادهما البيـاض.. قلـب أمـين الـذي عـانى معـه الكثـير مـن الأمـراض لم يتحمـل المجهـود فبـدأ في الانهيـار، بينـما هـو يحـاول أن يخبرهـم دون أن ينظـروا إليـه.. انتهـى الوقـت وظـل الوضـع كـما هـو للحظـات، تأكـد الجميـع فيهـا مـن انتهـاء الاختبـار بنجـاح.. قـام الأربعـة مـن فـوق أمـين الـذي انغلقـت عينـاه وارتخـت أطرافـه فـتردد الصـوت:

- مـبروك؛ لقـد نجحتـم في الاختبـار.. يمكنكـم التحـرك إلى الغرفـة المجاورة في خـلال دقيقـة مـن الآن.

انفتـح البـاب وتحركـت رشـا أولاً، تبعهـا الرجـل النحيـل، بينـما ظـل مـراد

والرجل الآخر يحاولان إفاقة أمين، الذي أنهى قلبه مهمته وكف عن ضخ الدماء إلى باقي جسده.. ظلا يحاولان حتى قام مراد باختبار نبض أمين وتنفسه، بينما الجدران تنغلق عليهم في سرعة.. صرخت رشا من الغرفة المجاورة فيهما:

- هيا إلى هنا ماذا تنتظران؟

نظر مراد إلى الرجل الآخر قائلاً في ارتياع:

- لقد مات الرجل.

كانت المهلة تنتهي في سرعة والجدران أصبحت على وشك ملامستهما، فآثر الرجل السلامة وترك مراد جالسًا عند رأس أمين هاربًا إلى الغرفة الأخرى، بينما صرخت رشا:

- مراد.. لا تتركني وحدي.

تمالك مراد ما تبقى من أعصابه وانطلق مهرولاً بين الجدران الضيقة إلى الغرفة الجديدة، قافزًا إلى داخلها، في نفس اللحظة التي انغلق الباب من ورائه لتسحق الجدران جثة أمين.. رمت رشا نفسها في أحضان مراد، دون اكتراث بزوجها الذي يشاهدهما، سائلة:

- أين الرجل البدين؟

رد مراد في سخط موجهًا عينيه إلى الرجل النحيف:

- لقد مات.. لا لقد قتلناه جميعًا.

- ولمَ تنظر إلى ناحيتي؟! لقد اشتركنا جميعًا في هذا، وربما الرجل مات جراء قلبه الذي لم يتحمل المجهود.. ثم لا تستعجل فربما نلحق به جميعنا قريبًا.

قالها الرجل النحيف في غضب، ثم أضاف مشيرًا إلى الجدران من حوله:

- إنها لعبته اللعينة وقواعده السخيفة.. هو من قتله وليس نحن.

ران الصمت على الجميع، بينما انتحبت رشا بين ذراعي مراد الذي

دار بنظره في الغرفة، ليرى حوضًا قديمًا معلقًا على أحد الجدران، تعلوه مرآة صغيرة كتب في ورقة من فوقها اسمه.. ترك رشا بهدوء وتحرك إلى الحوض كالمسحور، ليجد سكينًا صغيرًا في قاع الحوض.. أمسك بالسكين بين يديه ونظر إليه في تساؤل، فتردد الصوت مجددًا:

- شعور جيد.. أليس كذلك؟ أمين المسكين مات من خوفه من مجرد كعك عادي لظنه أنه مملوء بالدود، لا بد أنه يضحك الآن في الجحيم، فهو كان يحب هذا النوع من الدعابات.. لا تنكروا أنكم شعرتم بالتخفف بعد أن خلعتم قناع التحضر ولمستم البدائية والحيوانية بداخلكم.. الآن تشعرون مثلما أشعر.. الآن فقط تفهمون.

ترددت ضحكات قصيرة حولهم أنهاها الصوت بأن قال:

- والآن إلى اختبارنا التالي.. الغرور، أفضل الخطايا جميعًا، ولا أحسن من مراد لاختبار ذلك.. وجهك الوسيم وجسدك الرياضي نجحا في سحب رشا وشهوتها المفرطة إلى فراش الخيانة الزوجية.. لم يكن هناك وجه للمقارنة بيني أنا الزوج العجوز المريض وبينك أنت الشاب الوسيم المغرور.. اليوم فرصتك لإثبات حبك لرشا بالدليل القاطع.. فرصتك للتطهر من خطيئة الغرور التي ملأت روحك وسيطرت على حياتك، ستضحي اليوم من أجل حبك ولا تضحية أكبر من ذلك.. لطالما كرهت ابتسامتك المتعالية التي تعجب النساء، لذا أريد رسم أخرى على وجهك.. ثبت النصل الذي بين يديك في فمك من الداخل واحفر ابتسامة بالسكين تدوم طوال عمرك المتبقي.. شق فمك من الجانبين وارسم ابتسامة لا تزول أبدًا.. اجبن كما أتمنى وسأفجر رأس عشيقتك الخائنة أمام عينيك.. أمامك دقيقة واحدة.

بدأت الثواني في التقافز على الميقاتي الذي أضاء أمام الأعين، بينما مراد ينقل نظره بين انعكاس وجهه في المرآة والسكين في يده.. خمس عشرة ثانية مرت، بعدها صرخت رشا:

- افعلها أيها الجبان.

بهت من رد فعلها، فالتفت إليها قائلاً:

- من تنعتين بالجبان أيتها العاهرة؟

- بعد كل ما قدمته لك تنعتني بالعاهرة؟! بعد كل ما قدمته من أجلك تتركني للموت من أجل وجهك الثمين؟!

- لم تقدمي لي شيئًا، بل أنا من قدمت لك كل شيء، رغم أنني كنت أتقزز منك ومن رائحتك.

نظرت رشا إلى الميقاتي فوجدت أن ثلاثين ثانية قد مضت، فجن جنونها.. هجمت على مراد مطوّحة بيديها صارخة:

- سأفعلها بيدي أيها الجبان.. لن أتركك لتقتلني كما قتلت أمين.

لطمته بيدها في وجهه فأصابت عينه اليمنى في طريقها للوصول إلى السكين، الذي يقبض عليه مراد بيمناه.. صرخة هادرة خرجت من مراد الذي أمسكها من ذراعها محاولاً السيطرة عليها.. لطمة أخرى منها إلى وجهه وصلت إلى عينه مرة أخرى فتطايرت الدماء منها هذه المرة.. فقد مراد السيطرة على يده الممسكة بالسكين هذه المرة، فتحركت لتحز عنقها في حركة سريعة.. اتسعت عينا الاثنان في اندهاش بينما مراد وقف بلا حراك ورشا تهوي على الأرض، تحاول التنفس من وسط دمائها التي أغرقت وجهها وخرجت من فمها.. تغرغر محاولة التنفس بينما مراد لا يزال على حاله والدماء تتساقط من جراحه، تختلط بدمائها التي تجمعت في بركة من حولها.. لحظات مرت من الصمت قطعها الصوت قائلاً بآلية:

- انتهى الوقت.. تحركوا إلى الغرفة المقبلة في خلال دقيقة من الآن.

نظرات مراد ما زالت معلقة بجثة رشا، بينما الرجلان المتبقيان معه يجرانه جرًا إلى الغرفة التي انفتح بابها.. يده ما زالت متصلبة على السكين الذي نحرها والدهشة لا تفارقه.. تذكر كيف كانت تطبع

قبلة صغيرة على شفتيه كأنها تضيف إمضاءها في نهاية كل لقاء بينهما، بينما تنغلق الجدران على جسدها الخاوي من الحياة.. وقف في الغرفة مع زميليه لا يرى شيئًا سوى صورة عينيها بين تعبير الألم والاندهاش.. انطلق الصوت يغلفهم فلم يسمعه:

- الاختبار القادم من نصيبك يا سامي، الذي لم يمثل لي وجودك سوى الكسل مجسّدًا.. لطالما ظهرت على عتبتي مطالبًا بإعانات مادية مع وعد بردها لا يتحقق أبدًا.. لطالما أصابك الكسل عن إيجاد عمل أو الصبر على وظيفة.. لطالما كان يصيبك الضجر من حياتك فتأتي إلى مكتبي مذكرًا إياي بصداقتنا القديمة، والمرة اليتيمة التي دافعت فيها عني طالبًا سلفة جديدة، حتى حياتك لم تحرز فيها تقدمًا يُلحظ.. لم تتزوج أو تنجب أولادًا، لم تستثمر نقود والدك فضاعت منك بين الكسل والمخدرات.. عشت عالة طوال الوقت، ولكن اليوم نُدبّ النشاط في عروقك.. كسلك يعيقك، لذا سأزيله من أجلك كخدمة أخيرة أقدمها لك.. أمامك جهاز تدريب كهربائي على الجري، لا أظن من ترهل جسدك أنك رأيت مثله منذ فترة طويلة.. المطلوب منك أن تجرى على هذا الجهاز لمدة خمس دقائق لا أكثر.. افشل في هذا وافجر رأسك.

ألقى سامي نظرة على مراد والرجل النحيف قائلاً:

- هذا يبدو سهلاً.

تحرك من فوره ليصعد على الجهاز الذي بدأ سيره في التحرك بهدوء، ليحرك قدميه معه، بينما عينا الرجل النحيف تتابعه في شدة.. ازدادت سرعة الجهاز شيئًا فشيئًا ومعها بدأ سامي يبذل مجهودًا أكبر.. لم تمر دقيقة إلا وكان الجهاز على سرعته القصوى وسامي يلهث محاولاً التقاط أنفاسه.. قدماه تتحركان بسرعة أكبر فأكبر.. نصف دقيقة أخرى واختل توازنه، فدفعه الجهاز إلى الخلف ليرتطم بالحائط من ورائه.. تكلم الصوت بطريقته الآليه قائلاً:

- فشلت للأسف.. الوداع.

- لا انتظر.. انتظر.

تبعها صوت الفرقعة الخفيف لينتهي سامي في لحظة رافعًا يديه أمام وجهه، كأنما يقى وجهه الذي لم يعد هناك.. انفتح الباب كالعادة بانزلاقة إلى أحد الجوانب، بينما ردد الصوت في ملل:

- يمكنكما الانتقال إلى الغرفة المقبلة.. أمامكما دقيقة واحدة.

شد الرجل النحيف مراد من ذراعه، بينما ما زالت نظراته زائغة في ذهول.. انغلق الباب من ورائهما على غرفة ازدانت جدرانها برماح مدببة صغيرة ملأت كل شبر فيها، دون أن يكون فيها أي شيء آخر من أي نوع.. نظر الرجل النحيل من حوله في صمت بينما تردد الصوت:

- مبروك.. لقد وصلتما إلى مرحلة التصفيات النهائية.. الاختبار هذه المرة لك يا فوزي.. الجشع.. لا أستطيع أن أصفك بغير ذلك، دومًا ما سرقتني وأنت تظن أني لا أعلم.. دائمًا ما كنت تتفاخر بأنك قد تستطيع فعل أي شيء من أجل المال، لذا وضعتك معهم لأعطيك فرصة مثلهم، واليوم سنضع ذلك في الاختبار.. أظن أنك اندهشت قليلاً عندما وجدت نفسك مخدّرًا وملقى بجانبهم بعد أن ساعدتني في جلب كل منهم، ولكن أظنك تفهم الآن، فأنت لا تختلف عنهم في شيء.. انبهرت بأدائك مع الباقين عندما أقنعتهم بعدم معرفتك بشيء، مع أنك قد أشرفت بنفسك على بناء هذا المكان بناء على التصميمات التي أعطيتك إياها.. لم تسأل عن شيء أبدًا في خلال أعوام عملك معي كمساعد شخصي لي، ولكن هل أنت قادر على تقديم التضحية الكبرى من أجل جشعك؟

كانت الحياة تدب في مراد شيئًا فشيئًا عندما سمع الجزء الخاص بمساعدة فوزي في بناء هذا المكان، فقال والغضب يتطاير من بين كلماته:

- هـل سـاعدت هـذا المجنـون في بنـاء هـذا المـكان ولم تقـل ذلـك منـذ البدايـة؟

لم يجبه فوزي بينما ردد الصوت بجنون:

- اقتل مراد في خلال دقيقة واحدة وإلا انفجر رأسك.

أشـهر مـراد سـكينه في وجـه فـوزي، بينـما بـدأ فـوزي في الـدوران مـن حولـه.. تلاقـت أعينهـما وتمتـم مـراد:

- لقد قتلتنا جميعًا معه.. أنت شريكه في هذا.

رد فوزي في هدوء:

- إنه العمل يا صديقي.. لا شيء شخصي.

أنهـى كلماتـه بـأن قفـز في اتجـاه مـراد الـذي حـاول رفـع السـكين، ولكـن فـوزي الـذي واتتـه قـوة لم يعهدهـا مـن قبـل رفعـه عـن الأرض.. مـراد يحـاول توجيـه بعـض اللكـمات لم تفلـح مـع فـوزي الـذي جـرى حاملاً جسـد مـراد ليغـرزه في الجـدار مـن ورائـه.. اندفعـت النصـال الحاميـة تخـترق لحـم مـراد في عنـف، ليهتـز جسـده لثانيتـين قبـل أن يهـدأ نهائيًـا وإلى الأبـد.

أطلق فوزي ضحكة مجلجلة قائلاً بعلو صوته:

- لقد فزت.. لقد فزت.

أمّن على كلماته الصوت الذي تردد من حوله:

- تهانينا.. لقد أنهيت مهمتك بنجاح.

- هيا افتح هذا الباب واعطني مكافأتي.

فقد الصوت آليته واتسمت كلماته بالسخرية:

- عملـت معـي طـوال هـذه السـنوات ولكـن لم تفهـم شـيئًا بعـد للأسـف.. لقـد قلـت نجحـت في المهمـة ولكنـك لم تفـز في مسـابقة الخطايـا.

- لقد قلت أن من ينهي السباق ينجح.

قالها فوزي صارخًا.

- لا.. لقـد قلـت إن خطيئـة واحـدة سـتنهي السـباق، ولكنـك نسـيت

شـيئًا لجهلـك أيهـا السـاذج.. الخطايـا سـبع وأنتـم سـتة فقـط، الحسـد والـشره والغـرور والشـهوة والكسـل والجشـع.. خطيئـة واحـدة ناقصـة، وهـي الغضـب، التـي احتفظـت بهـا لنفـسي منـذ البدايـة.. أنـا الفائـز حتـى مـن قبـل أن تبـدأ المسـابقة.

- لكني ساعدتك في كل شيء منذ البداية وحتى الآن.

- أشـكرك يـا فـوزي، لقـد أحسـنت أداء مهمتك الأخـيرة، ولكـن.. خدماتك لم تعـد ذات فائـدة بالنسـبة إليّ بعد الآن.

- انتظر.. انتظر.

- انتهـى السـباق يـا فـوزي وقـد أسـديت للعـالم معروفًـا بـأن خلّصتـه منكـم.. يمكنـك الحـسرة عـلى مـا تبقـى مـن حياتـك في خـلال الدقيقـة القادمـة.

انطفـأت الأنـوار ليغـرق فـوزي في ظـلام دامـس، ويسـمع صـوت الجدران تتحـرك تقـترب مـن بعضهـا في تـؤدة.. تـردد الصـوت الخـالي مـن المشـاعر مـرة أخـيرة قائـلاً:

- انتهت اللعبة.

حارة الشيخ شحاتة

سر نجـاح أي سـاحر سـببه حاجتـين: ثقتـه في نفسـه، وقـوة اعتقـاد النـاس فيه .

البيضة والحجر

لا أعلم لم قررت المغامرة بالنزول في هذا البرد وفي تلك الليلة.. ربما هو الملل لشخص شبه عاطل يحاول الفعل دون نجاح.. ربما كان السعي وراء فكرة جديدة تجعلني أكتب مقالاً أو اثنين بدلاً من ذلك الانسداد الفكري الذي أصاب عقلي وكلماتي بالضمور.. ربما كان إحساس ليلة رأس السنة الذي يغمر الناس بالتوق إلى المغامرة والتجديد والسعي وراء الاختلاف.. ربما كان كل هذا، أو لا شيء منه.. لم أعتد على الإجابة عن أسئلة مثل هذه، ولا أريد أن أبدأ الآن في تبرير أفعالي، تعوّدت نفسي على الفعل مؤجلة كل الأسئلة لما بعد.. أرى الفرصة سانحة أمامي فأحاول بكل جهدي اللحاق بها، فلربما تكون هي تذكرتي للخروج من إطار حياتي الخانقة، دون أن ينشغل عقلي بالأسئلة.. فرصة واحدة، جل ما أريد هي فرصة واحدة.. اليوم أتتني فرصتي على طبق من فضة.. تلك المحادثة الخاطفة التي سمعتها لدى وجودي في الجريدة الصفراء التي أعمل ولا أعمل بها.. رأيت حمدي نجم الجريدة اللامع يطرق باب مكتب رئيس التحرير متصنّعًا الأدب والوقار، حتى ظننت أن هالة الملائكية ستبرز فوق رأسه لتغطي قرون الشيطان التي تنبت فوق رأسه.. تابعته وهو يدخل إلى المكتب بينما أنا مشغول في طباعة بعض الأوراق في الطابعة اليتيمة المستقرة على بُعد خطوات منه.. شيء في داخلي جعلني أتصنّع مراجعة بعض الأشياء، بينما تخترق أذني محادثته مع رئيس التحرير خلال الباب رديء الصنع الذي لم يستطع حجب صوتهما.. سكنت الأصوات من حولي كأنما الكون يتعاون معي، وسمعت حمدي يقول:

- حضرتك طلبتني؟

- ادخل يا حمدي، جيت في وقتك.

- خير!

- خبطة صحفية ممكن تغيّر حياتك كلها.

- أنا جاهز يا فندم.

- طب مش تعرف إيه هي الأول؟!

قالها رئيس التحرير ضاحكًا ضحكته الرنانة.

- ما دام خبطة جديدة مش مشكلة، إن شا الله تكون مع العفاريت.

- لا الموضوع ده مش محتاج اندفاع.. لازم تتصرف بهدوء ومن غير ما حد يشك في حاجة.

- طب فهمني حضرتك.

سمعت رئيس التحرير يتنحنح كعادته قبل أن يلقي الأخبار الضخمة.

- من شوية جاتلي مكاملة من مصادر، بتقول إن فيه حارة فيها حاجات غريبة بتحصل.

- خير! إيه نوع الأحداث الغريبة دي؟

- ما هو ده اللي إنت هتعرفه.. الغريب إن كل المكالمات اللي وصلت لأكتر من جهة من الحارة دي متفقتش على وصف معين للـ.. للحاجة اللي بتحصل.

- طب فيه أي جهات اتحركت؟

- الحقيقه لأ، الموضوع مبهم جدًا ومحدش بيتكلم، وللأسف كالعادة كل جهة بترمي المسؤولية على التانية، ده غير إن الحكومة مش فاضية للحاجات دي.

- طب أحسن برضو.. عشان أبقى على راحتي.. حضرتك عارف الأمن بيعقدوا الدنيا أكتر من اللازم.

- مش لوقت طويل خد بالك.. شوف يا حمدي إنت من أحسن الصحفيين عندي وعشان كده أنا رشحتك للموضوع ده.. مش عايز أوصيك.

- متقلقش يا فندم.. ده إحنا تلامذتك.

رأيته يخرج مسرعًا ممسكًا بملف يحوي العديد من الأوراق.. وكأنما قرر الكون مساعدتي مرة أخرى اصطدم بأحد الزملاء في إسراعه، ليوقع الملف من يديه وتتطاير ورقة صغيره تحت قدميّ، كُتب عليها عنوان حفرته في ذهني لدى رؤيتي له.. ولم لا؟ قلتها في نفسي وأنا أتحرك بين الشوارع الضيقة نحو وجهتي.. ربما أثبت لرئيس التحرير جدارتي فيساعدني ذلك في الترقي أو يدفع مستقبلي الصحفي المضطرب خطوة إلى الأمام.. سيفهم أخيرًا مدى كفاءتي وسيوليني بعض الاهتمام.. من يعلم؟

بين غابة الشوارع أتحرك في سرعة محاولاً تذكر وصفة ذلك الفكهاني.. يمين في ثاني يسار ثم يسار في ثاني يمين، أم هو العكس؟ ظللت أدور في دوائر حول نفسي لمدة ساعة حتى أرهقني التعب فلجأت إلى أول مقهى صادفته.. وجدته شبه فارغ على غير العادة في ليلة مثل هذه وفي هذه الساعة، ولكني كنت مرهقًا من التفكير في أي شيء.. أرجعت رأسي للوراء أسندها على الحائط مغمضًا عينيّ في هدوء.

- اصحي يا حارة وفوقي.. اصحوا يا نايمين.

فتحت عينيّ في سرعة لأرى مصدر هذه العبارة، فوجدت هذا الرجل المغطى بالأسمال.. معكّر الوجه قذر الرائحة طويل الشعر مشعث اللحية، مجذوب كما يسميه الناس.. دق بعصاه البالية الأرض في شدة مكملاً:

- ده بكرة ييجي اليوم شمس النهار هتبان، وهتكسر الضلمة.. ضلمة ملت البيوت.. ضلمة عشّشت جوة القلوب.. اصحوا ومتخافوش.. ولا ناموا.. ناموا وأنا هفضل سهران ومستني، هستنى الشمس تكسر الضلمة.

جذبتني كلماته فنظرت إليه بينما تحرك يبتعد عنا مكملاً:

- اصحوا يا ناس وفوقوا.. اصحي يا حارة.. حي.. قيوم.

سمعت أحد الجالسين من ورائي يتكلم قائلاً:

- نفسي بس أفهم الراجل ده عايز إيه؟

فردّ عليه آخر:

- أهو كل يوم على الحال ده لغاية ما خوتنا.

من أين يأتي هؤلاء المجاذيب. وإلى أين يذهبون؟ كأن الأرض تنشق من تحتهم فيختفون حتى تأتي الفرصة فيظهرون من شق آخر.. أم هي العيون التي تنفر من مناظرهم والنفوس التي تثقل لرؤيتهم تهيء لعقولنا اعتبارهم شفافين من حولنا فلا نراهم إلا عندما يتكلمون.. أغمضت عينيّ مجددًا مؤجلاً تفكيري لوقت آخر.. تلتقط أذناي صخب المقاهي المعتاد، فأسمع هذا الرجل الجالس أمامي ممسكًا بالصحيفة يتكلم مع لا أحد، قائلاً:

- بيقولوا الأسعار هترخص.

خالطه صوت من جانبي يقول:

- واحد قهوة مظبوط يا ابني.

سمعت القهوجي بصوته العالي:

- من عيني يا شريف باشا.

أصوات الأكواب المصطدمة بالمناضد الحديدية، قرقرة الشيشة، زهر الطاولة المتدحرج، وصخب المتكلمين تداخلت في أذنيّ صانعة ذلك المزيج المائع عديم اللون الذي ساعدني في تجاهل كل الأصوات من حولي ونقلها إلى خلفية عقلي.. سمعت صوت ارتطام عالٍ، ففتحت عيني في سرعة ناظرًا ناحية مصدره، فسمعت ذلك الرجل الجالس بمفرده أمام الطاولة المفتوحة يقول في لهجة ظافرة:

- شيش يك، وريني بقى هتطلع منها إزاي.

نظرت إليه في صمت للحظات متسائلاً في داخلي، من الذي يكلمه

هـذا المجنـون! بـدأت في داخـلي أصـب اللعنـات والسـباب عـلى رأسـه، ولكن قاطعنـي صـوت ذلـك المجـذوب بجانـب أذني:

- اصحي يا حارة.. اصحوا يا ناس.. ده الشمس بكرة تبان.

مـن أيـن أتى هـذا المخبـول أيضًـا؟ بـدا النفـور في ملامـح وجهـي لكنـي حاولـت إخفـاءه، آخـر مـا أريـد هـو أن يظـن هـذا المخبـول أني أسـخر منـه، فالجنـون يعطيهـم قـوة وعنـف لـن يفلـح جسـدي الهزيـل في صـده.. أنظـر إلى الأرض محـاولاً تجاهلـه، فـأراه يتحـرك ليقـف في مواجهتـي كأنـه علـم بمـا في رأسي.. ابتلعـت ريقـي في صعوبـة محـاولاً السـيطرة عـلى أعصـابي، ورفعـت عينـي إلى وجهـه المتسـخ قائـلاً:

- أؤمر.

لم يتحـرك، وظلّـت عينـاه مسـلطتين عـلى وجهـي ككشـافات آلمـت روحـي، فظننـت أن هـذه هـي طريقتـه في اسـتجداء المـال مـن الآخريـن، فقلـت:

- مفيش فكة؛ ربنا يحنن عليك.

وقـف هنالـك كتمثـال مفتـوح العينـين، فآثـرت أن أعطيـه بعـض المـال اتّقـاء لـشرّه.. مـددت يـدي محملـة ببعـض العمـلات المعدنيـة.

- ولا كلمة! مفيش! طب شوف، حظك من السما، خد يا عم خد.

لم يمد يده وظل على حالته، فصرخت مناديًا القهوجي لينجدني.

- طب إيه؟ إنت يا ابني.

جـاء الرجـل مسرعًـا يمسـح يديـه في مريولـه المتسـخ، فلـما رأى المنظـر فهـم كل شيء، فدفـع المجـذوب محـاولاً تحريكـه مـن أمامـي.

- خير يا بيه؟ إيه يا عم ناصر.. شوف سكّتك.

يرفع المجذوب عصاه الغليظة، فرفعت يدي فوق رأسي صارخًا:

- إيه؟ فيه إيه؟

رفع المجذوب عقيرته للسماء صارخًا:

- اهـرب مـن عـش الدبابـير أحسـن تتلـدع وتتلقـى المصـير.. اهـرب قبـل مـا تفهـم.. غمـض عينيـك واجري..حـي

- صلي على النبى في قلبك كده يا عم ناصر وامشي من هنا.

قالهـا القهوجـي بعدمـا نجـح في دفعـه إلى الخـارج، فسـمعت صـوت المجـذوب الـذي مـا زال يـصرخ:

- غمـض عينيـك واجـري.. اوعـى تقـرّب عينيـك مـن النـار.. اصحـوا.. مـدد.

أنهـى كلماتـه فبـدأ في التحـرك إلى الشـق الـذي اختفـى فيـه مـن قبـل، بينـما القهوجـي يـضرب كفًـا بكـف متابعًـا الرجـل بنظـره.

- ما هي ناقصاك إنت كمان.

وجّه كلماته إليّ معتذرًا:

- لا مؤاخذة يا باشا.. راجل بتاع ربنا بقى.

- لا عـادي محصلـش حاجـة.. بشـوفهم كتـير.. البلـد مليانـة.. ده كل يـوم الأيـام دي كل مـا تمـشي تتكعبـل في واحـد.

- على رأيك، بس بيزيدوا.

- إزاي.. مش فاهم.

مال عليّ كأنما يُسرّ إليّ بسر خطير:

- البركـة يـا باشـا.. البركـة قَلّـت مـن الحـارة ومـن الدنيـا كلهـا يـا باشـا، والنـاس زهقانـة وتعبانـة ولازم عقلهـا يخـف.

استرعت كلماته حاستي الصحفية، فسألته مستحثًا إياه على الكلام:

- إزاي يعني؟

- الناس اتجننت يا بيه.. الناس ماشية بتكلم نفسها في الشارع.

- لا بجد.

- زي مـا بقولـك كـده.. نـص النـاس اتجننـت والنـص التـاني قاعديـن في بيوتهـم وخايفـين ينزلـوا لغايـة مـا الحكومـة تتـصرف.

أتكون هذه هي الحارة التي كنت أبحث عنها منذ البداية؟ هل كنت أدور حول نفسي بينما أنا في المكان الذي أريده منذ البداية؟

مرت من أمامنا في ذلك الوقت شابة على قدر كبير من الجمال تمشي في تؤدة، تبتسم في عذوبة.. تهمس في خجل إلى لا أحد، فقال القهوجي مشيرًا إليها:

- صدقتني يا بيه؟

قلت في غير تصديق:

- دي ماشية مع الهوا؟ وبتكلمه كمان؟

- الناس ضربت خلاص.

قالها القهوجي في سخط، فسمعت صوت رجل الطاولة من جديد.

- دش.. راحت عليك العشرة يا عم.

أشرت إليه متسائلاً في همس:

- والراجل ده تبعهم كمان؟

- مش بقولك يا بيه!

نظرت حولي في توتر، فالتقت عيناي بعينيّ الرجل ذي الجريدة، فقال مبتسمًا ناحيتي:

- بيقولوا الأسعار هترخص.

- وده إيه نظامه كمان؟

سألت القهوجي مشيرًا إلى ذلك الرجل، فقال ناظرًا إليه:

- محدش بقى عارف العاقل من المجنون.. هو حد الأيام دي عارف العاقل من المجنون ولا الغني من الشحات! الناس كلها بقت شبه بعضها.

- وإنت بقى تبع مين؟

- لا يا بيه الحمد لله لسه بعقلي.. تشرب إيه بقى؟

- هات شاي.

رأيت القهوجي ينظر إلى مقعد فارغ بجانبي متكلمًا إليه:

- شاي زي البيه؟ من عيني يا باشا.

انفتحت عيناي في اندهاش، فغادرني القهوجي متمتمًا:

- ربنا يسترها علينا ونطلع منها بعقلنا.

نظرت حولي من جديد مقاومًا رغبتي في الهروب من هذا المكان بأقصى سرعة، فوقعت عيني على رجل يبدو عليه الهيبة، سمعت القهوجي يناديه شريف باشا، يمسك بتليفونه على أذنه ويتكلم بنفاد صبر:

- أيوه يا حاج.. لا موضوع ابنك ده مقدرش أعمل فيه حاجة.. ابنك مينفعش يا حاج.. مع السلامة يا حاج.

نظر ناحيتي، إذ أحس بنظراتي إليه سائلاً في حدة:

- فيه حاجة؟

- لا أبدًا.. هيكون فيه إيه يعني!

وجهت بصري إلى أمامي في سرعة، متمتمًا:

- ربنا يستر.

سمعت صياحًا يأتي من بعيد، فرفعت رأسي أحاول الرؤية لأرى شابًا تستطيع دون جهد أن تميز أنه بلطجي المنطقة، يمسك بتلابيب رجل ضخم ويصرخ في وجهه:

- إيه اتعميت؟ مبتشوفش؟ مش تفتح وإنت ماشي؟

بادله الرجل بالصراخ:

- لِمّ نفسك يا ابني إنت واتكلم على قدّك.

- لا ده أنا أتكلم زي ما أنا عايز، ولا أتخن تخين في الحارة دي يسد معايا.

- ليه؟ هيّ سايبة!

أشار الشاب إلى الفراغ بجانبه صائحًا:

- إنت إزاي تزق صاحبي الزقه دي؟ ده إنت لو أعمى كنت حسيت.

- صاحبك مين يا خلل؟ استغفر الله العظيم! هيّ ناقصة مجانين على الصبح؟ إنت مجنون يا ابني؟

تبادل الرجل الآخر النظرات مع الفراغ أيضًا مكلمًا إياه:

- لا خليك إنت برة الموضوع ده.. أنا هتصرف معاه.

- إنت اللي بتكلم مين؟ ولا هتعمل فيها مخاوي.. ده أنا أطلّع عليك العفاريت.. هو أنا لسة هتكلم معاك؟

فتح الشاب مطواته في سرعة وحرفية أمام أعين الجميع، فتدخل أحدهم مهدئًا:

- إيه يا جماعة مش كده.

- سيبني.. سيبني وأنا هقطّعه.

قالها الشاب محاولاً الوصول إلى الرجل الذي احتمى بمن حوله، ويحاول فك الأيدي التي تكالبت عليه لتمنعه من الإتيان بجريمة.. بدأت أتحرك في سرعة ناحيتهم لأحاول المساعدة في منعه عندما سمعت الصيحة الهادرة من الطرف الآخر للشارع:

- سعيد!

ساد الصمت للحظات واتجهت الأنظار جميعًا إلى مصدر الصوت الذي غطى على كل الأصوات، لأرى ذلك الرجل فارع الطول قوي النظرات يرتدي جلبابًا أبيض ويمسك بمسبحة.. عيناه تومضان كأن فيهما شرر تناقضت مع ملامح وجهه الجامدة الخالية من المشاعر.. رآه الجميع فتخلى كل عما يفعله، حتى الشاب البلطجي الذي علمت أن اسمه سعيد أنزل مطواته وأغلقها في ارتباك وهو يتمتم:

- لا مؤاخذة يا شيخ شحاتة.

نظر إلى الهواء أمام الأعين المذهولة وأكمل آمرًا:

- يلا بينا من هنا.

انفـض الجمـع كـما بـدأ في ثـوانٍ وعـدت لمقعـدي في المقهـى، لأرى القهوجـي يهـرول ناحيـة الرجـل الـذي نـاداه سـعيد بشـحاتة.. الشـيخ شـحاتة.

- يـا أهـلاً يـا أهـلاً بيـك يـا عـم الشـيخ.. حصلتلنـا البركـة يـا شـيخنا.. ده إنـت مـن يـوم مـا سـبتنا والدنيـا اتخربـت.. باركلنـا القهـوة وتعـالى اشرب حاجـة.

نظـر القهوجـي إلى نظـراتي المتعجبـة وهـو يتحـرك خلـف شـحاتة في تقديـس، فتكلـم مشـيرًا إلى الرجـل:

- الشـيخ شـحاتة ده راجـل كلـه بركـة.. نـوارة الحتـة واللـهِ.. راجـل محـترم عـلى حـق ربنـا.

قمـت مـن مـكاني متجهًـا إليـه، بينـما أشـعر بعينيـه المشـعّتين تثقبـان روحـي ذاتهـا.. مـددت يـدي مصافحًـا ومرحبًـا.

- أهلاً وسهلاً.

مـد شـحاتة يـده البـاردة ليمسـك بيـدي في قـوة.. كأن لجسـده طاقـة مخيفـة شـعرت بروحـي تقشـعر مـن ملمـس يـده عـلى يـدي وكأنهـا تنسـحب مـن جسـدي.. نظـر إلى وجهـي مليًـا ويـده لا تـزال متمسـكة بي حتـى أفلتنـي في بـطء لأشـعر بروحـي ترجـع إليّ مـرة أخـرى.. آثـرت الرجـوع لمجلـسي مخفيًـا مـا يعتمـل في داخـلي، بينـما القهوجـي الـذي يتقـدم شـحاتة يقـول في سرعـة:

- اتفضل يا شيخنا.. دي حصلت البركة والله.

أتى الرجـل الـذي يقـرأ الجريـدة مهـرولاً إلى شـحاتة، الـذي اتخـذ مجلسًـا مجـاورًا لي، فلثـم يـده في سرعـة قائـلاً:

- يا أهلاً بيك يا بركتنا.. اتفضل.. نعناع على حسابي يا ابني.

قاطعه الرجل المهيب شريف:

- لأ، حاجة الشيخ شحاتة عندي أنا.

أمام عينيّ المذهولتين وقف الرجل في تبجيل يسأل شحاتة:

- بيقولوا الأسعار هترخص يا مولانا.

رد عليه شحاتة متعجبًا:

- بيقولوا فين؟

- في الجرايد.. كل يوم بيقولوا نفس الكلام.

رسم شحاتة ابتسامة على شفتيه، وقال بلغة العالم ببواطن الأمور:

- متقلقش.. هترخص.

تراقصت السعادة على وجه الرجل.

- ما شاء الله.. الحمد لله.

أكد شحاتة على قلة علمه صائحًا:

- والله أعلم.

رغم نفور نفسي المفاجئ من شحاتة اقتربت منه في هدوء.. رأيت فيه الفرصة للإجابة عن كل أسئلتي، هذا رجل يعلم الكثير.. تحركت بينما أسمع صوت المجذوب يأتي من بعيد كأنه نذير:

- متقرّبش عينيك من النار.. غمض عينيك واجري.. اجري من جنون لجنون.. مدد.. مدد يا أسيادنا مدد.

لم أهتم بمحاولة فهم كلام هذا المخبول، وقدمت نفسي لشحاتة قائلاً:

- أنا اسمي...

قاطعني شحاتة مكملاً جملتي:

- كمال جمال الدين.. صحفي شاطر ومشهور و... وطموح.

- طب كويس إنك عارفني، إنت قريتلي حاجة؟

- أنا أعرف حاجات كتير.. أكتر مما تتخيل.

تعجبت من معلوماته وارتسمت الحيرة على ملامحي، فسألته:

- إنت مين بالظبط؟

- لسه مش فاهم.. ولا مش عايز تفهم؟ أنا الشيخ شحاتة.. طب مش إنت جاي عشان تعرف الناس مالها؟ أنا هوفّر عليك.. ارجع محدش هيدّلك.

- هو أنا باين عليّ أوي كده؟

- مش قلتلك أنا أعرف أكتر مما تتخيل؟

- طب ما تيجي نجيب من الآخر.. شكلك العاقل اللي فيهم.

- اسمع كلامي وارجع؛ محدش هيدلّك.

- إنت بتقول إيه! دي فرصة عمري.. ده أنا لازم أفهم.. ده لو حصلت أنا ممكن أقلب الحارة على اللي فيها عشان أفهم.

قام من مجلسه مواجهًا إياي قائلاً:

- يبقى اتفقنا.

- على إيه؟

- مش إنت عايز تفهم؟

هزت رأسي في بطء أن نعم، فارتسمت علامات التحذير على وجهه قائلاً:

- يبقى تسمع من سكات وتنفذ.. ويا تفهم يا متفهمش.. ولو فهمت تفهم ليك لوحدك.. دي شروطي.. اتفقنا؟

- م.. ماشي.

ارتسمت ابتسامة ارتياح على وجهه، ورفع يده في هدوء ليضعها على رأسي، وفي اللحظة التالية كنت هناك.

* * *

تايه وسط الضلمه.. تايه ومش فاهم.. فاكر خروجك منها سهل؟ مسكين ابن آدم مهما تحذره ميسمعش.. اصحى يا ابن آدم وفوق.. اصحى من غفلتك وفتح عينيك.

* * *

أفتح عينيّ ببطء.. الدوار يعصف برأسي وكل عضلة في جسدي الممدد على الأرض الباردة تنبض بالألم.. أحاول النظر إلى ما حولي فتصطدم عيناي بالظلام المحيط من كل الاتجاهات، لا إضاءة في المكان سوى ذلك الشعاع الضعيف الذي يأتي من مكان سحيق فوق رأسي.. كأني وقعت في بئر أو بركان سحيق، لا أرى ضوءًا إلا من فوهته البعيدة.. قمت من مكاني محاولاً عدم الوقوع مرة أخرى، بينما أتساءل بعلو صوتي.

- إيه ده؟ أنا فين؟

بدأ الدوار في الانقشاع ليحل محله الرعب، فصرخت بأعلى صوتي:

- يا جماعة يا اللي هنا حد يرد عليّ.. أنا فين؟!

وجدت اليد الباردة توضع على كتفي وصوت شحاتة في أذني:

- إنت في الحلم.

- يا سلام!

- بص حواليك وإنت تتأكد.

- حلم إيه يا راجل يا مجنون إنت؟ إنت وديتني فين؟

- وبعدين! مش عايز قلة أدب.. مش إنت كنت عايز تفهم؟ اعتبره اجتماع مغلق.

- اجتماع؟!

- هنا آمن مكان في الكون كله.. على الأقل هنا محدش يقدر يتصنت عليك.. هنا بس مبتخافش من حقيقتك.. هنا بس بيتحقق المستحيل.. العاجز هنا بيقدر يمشي.. الأعمى بيفتّح ويشوف.

في الضوء الضعيف أشار إلى الظلام المحيط في تباهي:

- هنا مفيش حدود.. تقدر تجري، تمشي على الحيطان، تطير لو عايز، تقدر تكون أي حاجة متقدرش تكونها في الحقيقة.. كل يوم ممكن تكون حاجة جديدة ومختلفة.. مفيش هنا كلمه اسمها ملل.

انخفض صوته كأنما يكلم نفسه:

- هنا أحسن بكتير.

علا صوته مرة أخرى:

- وكمان عشان تقدر تشوف اللي عايز تشوفه.

- ما كفاية ألغاز بقى.. أنا معدتش فاهم حاجة.

- الصبر.. الصبر هو المفتاح.. اسمع ومتتكلمش كتير.

أضاءت بقعه من أمامي دون أن أرى مصدر الضوء، فظهرت في وسطها مبخرة كبيرة تتوسط مقعدين، والدخان عطر الرائحة يتصاعد منها بغزارة.

- وده إيه ده كمان؟ وجه منين؟

- تقدر تقول ده مكتبي.. هنا هتشوف كل اللي حصل بالتفصيل، وبعدين جه منين مش مهم.. فتّح مخك.. إنت في حلم.. فاكر؟

- أفتّح مخي إيه! وبعدين...

- شششششش!

- أصل...

- شششششششش.. اسمع واتفرج بهدوء لو عايز تفهم.

تركني في مكاني والحيرة تملأ ملامحي، وتحرك ليتخذ مجلسه فوق واحد من الكرسيين.. رمى المزيد من البخور في مبخرته وصاح:

- ادخلي يا بنتي.

رأيت الشابة الجميلة التي رأيتها من قبل تتكلم مع الهواء تتحرك بخطوات متخبطة قلقة، قائلة:

- سلامو عليكو يا عمو الشيخ.

أشار شحاتة إلى الكرسي المقابل له في وقار قائلاً:

- اقعدي يا فاتن.

جلست بسرعة تتلفت حولها في قلق فطمأنها شحاتة.

- خير! عينيكي مليانه كلام.. اتكلمي متخافيش.

- أنا مش عارفة أقول إيه، بس قالولي إنك بتحل أي مشكلة.. بس...

- كمّلي.

انفتحت طاقة جديدة في السقف المظلم الذي لا أراه، لترمي شعاع ضوء على رجل مستلقٍ على فراش يبدو عليه الإعياء.. تحركت فاتن في سرعة إليه لتمسك بيده في قوة، صرخت:

- بابا بابا.. مالك؟

سعل الرجل الراقد في ضعف ونقل عينه بينها وبين امرأة أخرى تجلس باكية على طرف الفراش، ثم تكلم ببطء:

- شكلي خلاص يا فاتن.

ردت عليه المرأة في سرعة:

- متقولش كده يا خويا إن شا الله اللي يكرهوك.

ابتلع الرجل ريقه في صعوبة مكملاً:

- قرّبي يا فاتن.

اقتربت بوجهها من وجهه، فتلمّس ملامحها بحنان وجاهد لرسم ابتسامة على وجهه المتجعد.. أشار إلى المرأة الباكية بيد مرتجفة قائلاً:

- خدي بالك من جميلة يا فاتن.. دي دلوقتي في مقام أمك.

ظهر التغير على وجه فاتن للحظات، ولكنها أجابت في سرعة:

- حا.. حاضر يا بابا.

حول نظره إلى جميلة الباكية مستطردًا:

- وإنتي يا جميلة خدي بالك منها، لو حصلّي أي حاجة.

- إن شاء الله هتخف وتقوم بالسلامة.

- لا شكلها خلاص كده.. شكلها....

جاهد الرجل لالتقاط نفس أخير زفره في هدوء، بينما نور الحياة ينطفئ من عينيه، وصراخ فاتن يملأ المكان:

- بابا بابا.

خفت الضوء حتى انطفأ، لتتحرك فاتن مبتعدة عن الفراش الذي لم يعد ظاهرًا للأعين، متحدثة إلى شحاتة:

- كانت هنا بداية حكايتي.. أبويا مات وسابني مع مراته اللي مش فايقالي وعايزه تخلص مني.

ظهرت بقعة جديدة من الضوء فتحركت ناحيتها مكملة:

- بعدها ظهر خالد في الجامعة.

- خالد ده مين ده كمان؟

حدثت نفسي بالعبارة، فكأنما سمع شحاتة أفكاري؛ وضع إصبعه على فمه مشيرًا لي أن اخرس ففعلت. رأيت شابًا من هؤلاء الذين تعج بهم الشوارع هذه الأيام وسط بقعة الضوء الجديدة.. ملابسه ضيقة على جسده وشعره كثيف منكوش، تحركت نحوه فاتن مشيرة إليه قائلة:

- ده كان خالد.

مرت بجانبه فأطلق صافرة إعجاب وتحرك وراءها، منطلقًا في الكلام كالسيل:

- هاي.. أنا خالد.. إحنا عندنا بارتي النهارده.. تيجي؟

توقفت فاتن مستديرة له في عصبية:

- إيه! فيه إيه؟

- إيه! عايز أتعرف على أحلى بنت شافتها عيني.

- لا والله؟!

- يبقى هتيجي البارتي.. دي هنا في الجامعة.

تركته وراءها وتحركت في سرعة بينما الضوء الوليد يخفت من جديد، قائلة:

- مش هاجي.

- هتيجي.

تحركت فاتن ناحية شحاتة مرة أخرى قائلة:

- مش عارفه ليه رحت الحفلة.. تقدر تقول كنت محتاجة أي حد يخرجني من اللي أنا فيه.. كان نفسي في حد يعوضني.. عرفت خالد.. مجنون.. مليان مغامرة.. جريء.

ظهر خالد مرة أخرى في بقعة جديدة من الضوء بجانب فاتن، التي قالت في غضب:

- إنت إزاي كنت بتكلم غادة بالطريقة دي؟

- يووووه! دي مجرد صاحبة يعني.. عادي يعني.

- وهو اللي إنت كنت بتعمله ده عادي؟

أمسك خالد برأسه في ألم.

- هتطيري الاصطباحة يا بيبي.. متزعقيش كده.

- متستفزنيش.

- جيرل.. إنتي اللي في القلب.. خلاص بقى.

هدأ صوتها بسرعة وسألته في خجل:

- بجد؟

- هو إيه ده اللي بجد؟

- لا والله؟!

نظرت فاتن إلى شحاتة قائلة:

- يمكن كنت بسأل نفسي ليه أنا مع خالد وأنا شايفاه كل يوم مع واحدة جديدة، بس كنت حاسة إني مختلفة.. كنت عبيطة يمكن، بس كنت بحبه وعايزة أغيّره.. وفي يوم سألته إيه أكتر حاجة بتعجبك فيّ.

أجابها خالد في بطء:

- إنتي كيوت كده.. وجميلة.

- وبس؟

- كفاية كده.. هتنهبي؟

- يعني عمرك ما فكرت في ذكائي.. مشاعري!

- ما إنتي جميلة.. محتاجة الحاجات دي ليه؟

تحرك إلى خارج دائرة الضوء التي بدأت تأفل في بطء وهو يقول في عصبية:

- إنتي هتخنقيني ليه؟ فكك مني؛ أنا مش فايقلك.. ذكاء إيه بس.. مع نفسك بقى.

وجهت فاتن كلامها إلى شحاتة من جديد:

- رماني في لحظة.. يمكن كنت غلطانة من الأول.. بس من يومها وأنا قافلة على قلبي.. خايفة من الرجالة.. خايفة من عيونهم اللي دايمًا بتشوف الشكل ومتشوفش المضمون.

بقعة بعيدة من الضوء تكونت، رأيت فيها جميلة تنادي فاتن:

- تعالي يا فاتن فيه حد عايز يعزيكي.

ردت عليها فاتن في اندهاش:

- حد؟ حد مين ده؟ وعزا إيه دلوقتي؟ بعد إيه؟

- تعالي بس.

تحركت فاتن ناحية الضوء، فوجدت شابًا يقف بجانب جميلة، مد يده إلى فاتن مصافحًا فور أن رآها:

- البقية في حياتك يا آنسة فاتن.

قدمته جميلة إلى فاتن:

- علاء ابن خالي الصغيّر.

- حياتك الباقية.

قالتها فاتن بلهجة رسمية، فتدخلت جميلة مرة أخرى في الحوار:

- علاء كان مسافر برّة ولسّه راجع، وقال لازم يعزيكي.

ساد الصمت للحظات لم يعلم أي منهم فيها ما يقول، حتى تكلمت جميلة أخيرًا:

- طيب أنا هروح أعملّك شاي.

- لا أنا لازم أمشي.. فرصة سعيدة جدًا يا آنسة فاتن.

- ميرسي.

أظلمت الدائرة المضيئة من جديد فوجهت فاتن كلامها إلى شحاتة:

- كانت أول مرة أشوف فيها علاء.. منكرش إنه عجبني للحظة، بس رجعت لنفسي وقفلت على قلبي من تاني، بس مكانتش آخر مرة.

سمعت فاتن صوت جميلة من دائرة الضوء البعيد وعلاء يقف معها:

- تعالي يا فاتن سلّمي على علاء، فاكراه؟ ما تاخد فاتن تخرّجها شوية كده بدل الحبسة اللي في البيت دي.

- أنا موافق.. إيه رأيك يا فاتن؟ تحبي تروحي فين؟

- أي حتة.. يلا قومي روحي معاه.. قومي.

توجهت مرة أخرى إلى شحاتة:

- خرجنا وفرحنا.. شخصية قوية.. فلوس.. عربية.. وبدأ يظهر كتير في حياتنا. وفجأة لقيتني بفكر فيه.. فجأة لقيتني بتخلى عن القفل اللي كان على باب قلبي، وفي يوم بص وقال...

ظهر بجوارها علاء من العدم قائلاً في هيام:

- فاتن.. أنا الفترة اللي فاتت حاسس بحاجات غريبة من ناحيتك و... أنا عايز أتجوزك.

هزت فاتن رأسها في حسرة مكملة:

- كان المفروض ساعتها أفرح وأتنطط وأترمي في حضنه، بس لقيتني بسأله.. إيه اللي عاجبك فيّ؟

رد عليها علاء بحيرة:

- إنتي.. إنتي.. جميلة.. أوي.

- بس كده؟

- و... و... وشكلك حلو.

على وجهها ارتسمت ابتسامة ساخرة قبل أن تكمل سردها لشحاتة:

- مش عارفه ليه في لحظة شفت فيه خالد من تاني.. قلبي ساعتها كان بيتعذب.. عارفة إني مجنونة زي ما بيقولوا عني، بس... لمجرد إنه قال الكلمة السحرية، لمجرد إنه شاف جمالي قلتله لأ أنا آسفة مش هينفع. كنت بتعذب وأنا بقولها بس مكنتش شايفة قدامي غير خالد.. ومن ساعتها وخرج من حياتي.

ظهرت الخيبة على وجه علاء الذي قال قبل أن يختفي شبحه:

- أتمنى لك السعادة في حياتك.

ظهرت جميلة من الجانب الآخر تصيح في غضب ناحية فاتن:

- إنتي إزاي ترفضي عريس زي ده؟

- مبحبوش.

- عملنا إيه بالحب يعني؟ حد يرفض علاء؟ إنتي مجنونة؟!

- إنتي اللي عايزة تخلصي مني.

- أيوه، وهو أنا هفضل جنبك طول عمري؟ منه لله أبوكي سابني وأنا في عز شبابي.

- دي مبقتش عيشة.

ألقى شحاتة بالمزيد من البخور في المبخرة، وسألها بلهجة عملية:

- وطلباتك؟

اقتربت لتجلس أمامه من جديد:

- نفسي في حد يشوف حاجة غير جمالي.. نفسي حد يشوف مشاعري، دماغي.. نفسي أكون أكتر من مجرد وش جميل.. عايزة حد يكون حسّاس زي كاظم ورومانسي وجريء كده زي تامر.

زفرت في شدة وأضافت:

- نفسي في حد يحبني بجد.

- طلبك ملوش حجاب، بس طلبك مجاب.

- بجد؟

- استني الشهر الجديد وحبيبك هيكون عندك أكيد.

رفع عينيه إلى مكاني في الظلام وسألني في هدوء:

- ها فهمت حاجة؟

- اللي هي إيه بالظبط؟

هز رأسه في أسف وألقى بالمزيد من البخور صائحًا:

- يبقى مفهمتش.. ادخل يا شريف.

دخل شريف الذي رأيته في المقهى يتحرك في خطوات سريعة، نظر إلى ما حوله في ازدراء ثم جلس أمام شحاتة واضعًا ساقًا على أخرى، محدثًا شحاتة بغطرسة:

- يلا اعمل الحركتين بتوعك.

رد عليه شحاتة بهدوء المتمرس في هذه المواقف:

- حركات إيه؟

- افتح المندل واقرا الفنجان، اعمل حجاب.. شغل النصب بتاعكو ده.

- ما دام عارف إنه نصب.. جيتله برجليك؟

- قلت أجرّب.. يمكن ألاقي الحل في الدجل والشعوذة بتاعتك.

ألقى شحاتة بمزيد من البخور وبدأت لهجته تتحول للإنذار:

- كلامك مليان تجريح وغضبهم أكبر مني ومنك.

- لا.. لا.. إنت فاكرني أفندي ولا إيه.. أنا لا يهمني منك ولا من عفاريتك.

- عارفك وعارف حكايتك.

- يا سلام! ده إيه الثقة دي كلها.. أنا الرائد شريف المنسي.

- كنت.

- وعرفت إزاي؟

- مش قلتلك عارفك وعارف حكايتك! قول مشكلتك.

تغيرت لهجة شريف وظهرت فيها الرهبة:

- والله ما أنا عارف إيه مشكلتي.. مش عارف إيه اللي جابني هنا من الأساس.

تحرك من مكانه إلى دائرة من النور، ظهرت فيها مجموعة من الرجال، قائلاً:

- كنت من أشطر الظباط في المديرية كلها.. أنزل من بيتي وكأني مالك الدنيا.

جرى ناحيته أحد الواقفين بسرعة:

- شريف باشا صباح الخير.

- أهلاً.

- والنبي يا شريف باشا كنا عايزينك توصي على الولد في اختبارات الحربية.

- وابنك بقى عايز يدخل حربية؟!

- هيموت ويدخلها، الواد مزاجه يطلع ظابط، مع إن يعني...

ظهرت نبرة الغضب في صوت شريف:

- مع إن إيه.. مالهم الظباط؟

- لا والله ما قصدي يا شريف بيه.. أنا بس كان قصدي...

- لا قصدك ولا قصدي.. خلاص هشوف.

- ربنا يكرمك يا باشا.. وعينيّ ليك طبعًا.

- أكيد طبعًا.

تركه شريف وراءه في تحركه، فرآه آخر فابتسم في بشاشة:

- شريف باشا.. اتفضل عندنا شوية.

- قريب يا حاج إن شاء الله.

- والله لإنت جاي شارب حاجة.
- فرصة تانية إن شاء الله.
- ده إحنا تحصلنا البركة والله.. ربنا يعلي مراتبك يا باشا.
تحرك شريف متجاوزًا الجميع، فسمعت شابًا يكلم الرجل الأخير.
- إنت بتعمل كل ده مع الراجل ده ليه يا بابا؟
- يا ابني قالوها قبلنا "ارقص للقرد في بلده".
- إشمعنى يعني؟
- ربنا يكفيك شر السلطة يا ابني.
أظلمت الدائرة من جديد، بينما شريف يستطرد موضحًا:
- كانوا بيخافوا مني أنا عارف.. بس كانوا بيحترموني، وأنا عمري ما آذيت حد، حتى في بيتي.
ظهرت امرأة أمامه فصاح فيها:
- الأكل يا هانم.
- حاضر يا حبيبي.
تحركت مهرولة فاستوقفها شريف:
- استني عندك.
- خير!
- أنا اتصلت بيكي تلات مرات النهارده على البيت.. مردتيش ليه؟
- قصدك إيه؟
- قصدي كنتي فين يا هانم؟
- هو إيه اللي كنت فين! أنا طهقت بقى من العيشة دي.
أعطته ظهرها متأهبة للرحيل عنه، فارتسم الغضب على وجهه:
- إنتي اتجننتي يا هانم! بتمشى وأنا بكلمك؟ ردي على سؤالي.
- أنا كنت في البيت طول اليوم.
- إنتي كدابة.. شكله إيه؟ أحسن مني في إيه؟

صمتت المرأة بينما اندفعت على وجنتيها الدموع، فكرر سؤاله في شدة:

- ردي عليّ.. اسمه إيه؟

فتحت عينيها في هدوء متكلمة:

- طلقني يا شريف.

هربت إلى الظلام من حولها، فتكلم شريف مرة أخرى مدافعًا عن نفسه:

- وفيها إيه لما أغير على مراتي زي الناس؟ بس برضو عمري ما آذيت حد.. كل ده لغاية ما جه اليوم المشؤوم.

تكونت بقعة جديدة من الضوء ظهر بداخلها رجل يرتدي بزة رسمية، كلم شريف محييًا:

- شريف باشا.. إيه أخبارك؟

- تمام الحمد لله.

- مروّح دلوقتي؟

- آه، ما تيجي معايا.. أنا راكن الناحية التانية.

- لا أنا ورايا شوية حاجات لسه.

- اسمع الكلام.. هعزمك على الأكل.

- لا خليها في يوم تاني، أصل عندنا شوية عيال النهارده ولسه بنظبطهم.

- بالتوفيق يا باشا.

أعطاه شريف ظهره ليتحرك خطوتين للأمام.

- شريف باشا.. استنى أنا نسيت.

استدار شريف في سرعة لينظر إليه، فرأيت السيارة التي ظهرت من وسط الظلام لتقترب منه في سرعة، وتداخل صوت الفرملة الشديد مع صراخ الرجل:

- حاسب.. حاسب.

ابتلع الظلام كل شيء من جديد لأسمع صوت شريف:

- حادثة.. سبت البدلة.. مقدرتش أستحمل أكون ظابط من غير دراع.. دراع صناعي بلاستيك بخبّيه عن عيون الناس.. ومن يومها وحياتي اتغيرت.

رأيت الرجل الذي يبحث عن واسطة لابنه يتحرك من جانب شريف الذي وقف في ذل، ارتطم بشريف في حركته فصرخ في وجهه:

- مش تفتّح يا أخي!

رفع شريف عينيه في أسى، فانطلق الرجل في وجهه:

- مش كفاية الواد بندورله على واسطة جديدة! اوعى من وشي.

تحرك شريف إلى ناحية شحاتة، فانبثقت دائرة من الضوء في طريقه يجلس فيها الحاج محمود وابنه، فابتسم له شريف متوجهًا نحوه:

- سلامو عليكو يا حاج محمود.

وضع الحاج محمود ساقًا على أخرى وردّ عليه دون أن ينظر إليه:

- وعليكم.

تحرك شريف يتجاوزهما في سرعة، والشاب يسأل أباه في دهشة:

- مش كنت بتقول ارقص للقرد!

- ما هو دلوقتي لا بقى قرد ولا بقت بلده.

- وطلباتك؟

صاح بها شحاتة، بينما يلقي بالمزيد من البخور، فجلس شريف من جديد قائلاً:

- نفسي؟ نفسي الناس تعملّي حساب من تاني.. نفسي في حد يطلب مني خدمة.. مراتي ترجع زي الأول.. نفسي في الهيبة من تاني.

- طلبك عجيب!

- طب ما أنا عارف.

- بس علاجك عندي.

- لا يا راجل؟!

- بكـرة تعـرف وتصـدق.. لمـا يهـل الشـهر الجديـد هتلقـى مـرادك وحياتـك مـن تـاني.

- يمكن.. أما نشوف.

نظر شحاتة نحوي بينما أحاول تجميع أي شيء مما أراه أمامي.

- لسه مفهمتش؟

- لسه بفكر.. بحاول أفهم.

تحركـت ناحيتـه كالمسـحور، ليظهـر كـرسي مـن العـدم بجانبـه، فجلسـت طلبًـا لبعـض الراحـة لأجـد سـعيد يتحـرك مـن جانبـي وهـو ينظـر لمـا حولـه في اسـتهتار.

- مولانا.. مولانا.

- تعالى يا سعيد.

- إيه الأخبار يا عمنا؟

تكلم شحاتة في عملية متجاهلاً سعيد:

- حكايتك ومشكلتك؟

- إلا صحيح بتحل أي مشكلة؟

- لو بإيدي.

- البت بتاعتي دلتني عليك.. بيقولوا بتحل كل المشاكل.

- زي ما قلتلك لو بإيدي.

- طب اسمع بقى يا مشيخة.

استغربت الكلمة، فصحت في تعجب:

- مشيخة!

نظر ناحيتي سعيد في استخفاف وأشار ناحيتي سائلاً شحاتة.

- أمان الكابتن ده؟

نظر ناحيتي شحاتة وقال بهدوء:

- لا ده معايا.

انكمشت في مكاني وأنا أؤمّن على كلماته:

- أيوه أيوه أنا معاه.

- طب اسمع يا عمنا.

ظهرت من خلفه دائرتان من الضوء، أشار لإحداهما قائلاً:

- بقوم من نومي على 4 العصر كده بلاقي دول.

أكمل يصف الاثنين الواقفين أمام عينيّ:

- شحتة وكيمو.. مسجلين خطر.. يشرّفوا مش كده؟

تكلم أحدهم بلسان ثقيل:

- سعدة.. عايزينك في مصلحة حلوة النهارده.. شوية شيكات هنحصّلها .

نظر الآخر إلى الفراغ قائلاً بصوت متحشرج:

- شغلانة لوز ومصلحة مقشرة.

أشار سعيد إلى الدائرة الأخرى التي امتلأت بالدخان قائلاً:

- ودول بقى شلة السهرة؟

كلّمه أحد الواقفين قائلاً:

- معانا حتة النهارده بس إيه، فوق فوق بالأوي.. هات نفس ياض.

تجاهله سعيد مشيرًا إلى الفتاة ذات الملابس الضيقة التي وقفت تضحك مع أحدهم.

- ودي لميا.. لزوم الشلة برضو.. يتهيألي بتحبني.. أو بتحب عز، والله ما أنا عارف.

- وطلباتك إيه؟

سأله شحاتة في اقتضاب، فابتسم سعيد في توحش.

- تعجبني يا مشيخة.. بتجيب من الآخر.

- مشيخة تاني!

لم أستطع مقاومة نفسي من التعليق على لفظه، الأمر الذي استفزه، ففتح مطواته في سرعة سائلاً شحاتة مرة أخرى:

- ده تبعك ده يا عمنا.. أصله رغاي ومش عاجبني.

انكمشت في مكاني ولم أنطق، فتمتم بسبة بذيئة وأغلق مطواه ليتابع في شرود:

- أنا نفسي أنضف.. آه نفسي أنضف.. نفسي أسيب الشلة ولميا.. نفسي أبقى محترم، نفسي في حد يدلني على الصح.. نفسي في صاحب بجد.. لا شحتة ولا كيمو ولا غيرهم.. نفسي بس ألاقي الصاحب ده، بس ألاقيه فين وكل النضاف بيخافوا مني يا بيأجروني أعمل اللي بيخافوا منه! تعرف تحلهالي؟ تعرف تلاقيلي حد نضيف بجد؟

- طلبك غريب.

- بس بيقولوا الحل عندك.

- وأنا هدّيك الصاحب اللي بتدور عليه.

- بجد ولا نصاباية؟

- لما يهل الشهر الجديد هتلقاه بيدق بابك أكيد.

التفت شحاتة إلى ناحيتي سائلاً بصوت عميق:

- يا ترى لسه محتاج لتوضيح يا طالب الفهم؟

كانت قد بدأت القطع تتلاحم في عقلي، والرعب يتملك ملامحي مما استنتجته.

- لا.. أنا كده بدأت أفهم.

أومأ برأسه وابتسامة خبيثة ترتسم على وجهه.

- أيوه إنت كده فهمت.

- يعني إنت السبب ورا كل ده؟

قام من مكانه وانحنى بطريقة مسرحية قائلاً:

- في خدمة حضرتك.
- إنت اللي مخلي الناس بتكلم نفسها في الشوارع؟
- قصدك عايشة حلمها.
- وليه؟
- ما إنت شفت بعينيك.. همّ اللي طلبوا.. همّ اللي جولي برجليهم.
- وأخدوا إيه يعني؟
تعالى صوته قائلاً:
- أنا اديتلهم الحياة.
قمت من مكاني وأنا أصرخ.
- اديتلهم الوهم وعيشتهم فيه.
رفع إصبعه وهو يهز رأسه، وقال مدافعًا عن نفسه:
- أنا اديتلهم الحلم.. اديتلهم كل اللي نفسهم فيه.
- بسحرك وأوهامك حولتهم لمجانين.
- أنا حولتهم لسعداء.. اديتلهم حياتهم وسط الحلم، اديتلهم السعادة.
- حلم مزيف وراه مليون كابوس.
- أنا اديتلهم الكمال.. وده طلبهم.
- جولك من جهلهم ويأسهم وقلة حيلتهم.
- أنا اديتلهم اللي الحياة مقدرتش تديهولهم.

لا بد أني جننت، بل أنا متأكد الآن أني في سراي المجانين، أصرخ في الهواء بينما الممرضين الضخام يحاولون تثبيتي إلى السرير.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا.. ظللت أدور في دوائر حول نفسي بينما شحاتة يقف أمام عينيّ بابتسامته الواثقه التي لم تتحملها أعصابي.. ركلت المبخرة في فورة غضبي فتوهج كل ما حولي بضوء أحمر شيطاني للحظات ليبتلعنى الظلام من جديد.

- فوق فوق يا أستاذ.. هي ناقصاك إنت كمان؟

سمعت القهوجي يصرخ بها وأنا أسترد وعيي.. شهقت كأني اشتقت للهواء وقمت من فوري جالسًا، فوقف القهوجي في فرح:

- الحمد لله.. قوم اشرب شوية مية.

نظرت إلى ما حولي في سرعة فوجدت شحاتة ما زال في مكانه يبتسم نفس ابتسامته المستفزة، ولما التقت عينانا غمز لي ورفع حاجبيه في تساؤل.. تكاثرت علامات الاستفهام على وجهي وما بداخلي شعور باليقين مما رأيت.. قمت مسرعًا وأنا أحدث نفسي:

- لا مستحيل.. لازم أفوقهم.. لازم أنبههم.

- إيه يا أستاذ؟ فيه إيه؟

- لازم يصحوا.

- همّ مين دول؟ استرها معانا يا رب!

ضرب القهوجي كفًا بكف وهو يراني أتحرك ناحية فاتن التي ما زالت تكلم الهواء.

- فاتن.. فاتن اصحي يا فاتن.. مفيش حد معاكي.. حبيبك لسه مجاش.. دوري عليه في الحقيقة.

استدارت لتواجهني في تساؤل، فلما رأت الغبار يملأ ملابسي قالت:

- ربنا يحنن عليك.

- يحنن عليّ إيه؟ بصي حواليكي.. شوفي إنتي بتكلمي مين.. محدش معاكي إنتي بتكلمي الهوا.

نظرت إلى الفراغ بجانبها محدثة حبيبها الخيالي:

- لا لا ده شكله مجنون يا حرام.. سيبك منه متجيبلناش المشاكل.

تركتها أمام الأعين المتسائلة واتجهت إلى المقهى ناحية شريف:

- طب شريف.

رد في نبرة متعالية مصححًا:

- شريف بيه.

- شريف بيه.. شريف باشا.. حياتك ممكن ترجعلك لو حببت الناس فيك.. عاملهم كويس.

رفع الهاتف إلى أذنه في سرعة قائلاً:

- أيوه يا حاج.

- مفيش حد بيكلمك يا شريف.. افهم.. اصحى.. كله وهم.

- ابعد عني يا مجنون إنت.

سمعت صوت من داخل المقهى يصيح:

- شيش يك.

هرولت إليه ووقفت أمامه.

- طب اسمعني إنت.. إنت بتلاعب الهوا.. افهم.. اصحى.

لم يرد على كلماتي فصرخت في الجميع:

- اسمعوني مينفعش كده.

قام الرجل منتفضًا قائلاً بشدة:

- أيوه صحيح مينفعش كده.

أمسكت به من كتفيه، فقد بدا أن أحدهم يستيقظ.. تلاعب الأمل بقلبي حتى قال:

- بيقرص على الزهر يا أستاذ.. ينفع كده؟

رأيت الرجل ذا الجريدة يقول كعادته:

- بيقولوا الأسعار هترخص.

- طب اسمعني إنت.. إنت اللي هتسمعني.. فوقوا اصحوا.

نظر إليّ في بلاهة للحظات ثم ضيّق عينيه قائلاً في همس:

- بيقولوا الأسعار هترخص.

رأيت سعيد يتحرك أمام القهوة فتحركت ناحيته.

- طب سعيد.. اسمعني إنت.. إنت بتكلم الهوا.. مفيش حد جنبك.

- امشي بعيد يا راجل إنت.

نظر إلى الهواء بجانبه قائلاً:

- المجانين كتروا أوي يا مصطفى.

أمسكت به من ذراعه صارخًا:

- بقولك اسمعني.

انفتحت المطواة في يده في لمح البصر وتراقصت الوحشية على قسماته صارخًا:

- لا ده إنت محتاج علامة.

أفلت منه في سرعة وجريت ناحية شحاتة الذي يشاهد باستمتاع.. أمسكت به من تلابيبه وأنا أصرخ في وجهه:

- إنت السبب في كل ده.. فهمهم.

- شيل إيدك من على مولانا يا مجنون إنت.

- يا نهارك أسود!

- ده إنت يومك مش معدي.

تعالت الأصوات المهددة من حولي، وبدأ الجميع في التوجّه نحوي للفتك بي، حتى أوقفهم شحاتة بإشارة من يده.. رد عليّ في هدوء وهو يضحك في سخرية:

- أفهمهم! أفهمهم إيه؟ تقدر تقول علينا إحنا اللي فاهمين بجد.. إنت اللي محتاج تفهم.

- أفهم إيه؟ سحر ودجل وشعوذة وأوهام ساجن فيها ناس ملهمش ذنب!

- أنا؟ طب أنا راضي ذمتك، عمرك شفت سعادة أكتر من اللي هنا؟ عندك فاتن وصلت للحب اللي بتدور عليه.. شريف رجع لبيته ولحياته وبكرة يكون أحسن.. سعيد قابل صاحب بيدوّر عليه من زمن وبكرة أكيد هيتغير.. بص حواليك.. شايف الابتسامة اللي على وشوش

النـاس؟ اطلـع بـرة وشـوف النـاس في الشـوارع.. نـاس مهمومـة وكئيبـة.. وهـم؟ بتقـول وهـم؟ اسـمه حلـم.. أمـل في بكـرة.

- أمـل مغشـوش منسـوج بمية عفاريـت.. عقولهـم مليانـة كـدب وأوهـام مـش أحلام.

سألني في هدوء بينما عيناه تخترقان روحي.

- إيـه الفـرق بـين الحقيقـة والوهـم؟ تقـدر تقـول إيـه الفـرق؟ بيقولـوا اقرصنـي عشـان أعـرف إني مبحلمـش.. بـس مـين اللـي قـال إنـك مبتتألمـش في الحلـم؟ مـين الـلي قالـك إني واقـف قدامـك دلوقتـي؟ مـا يمكـن تكـون واقـف لوحـدك في الشـارع وبتكلـم نفسـك زي المجانـين.. فـين الفاصـل بـين الوهـم والحقيقـة؟ السـمع؟ النظـر؟ الريحـة؟ إحساسـك بـالألم؟

أرخيت قبضتي وأنا أحذّره:

- أنا بحذرك.. اوعى تلعب بدماغي.

- إنـت دماغـك ملعـوب فيهـا مـن زمـان.. طـب تحـب أقولـك حقيقـة؟ النـاس كلهـا عايشـة في وهـم.

- لا يا راجل؟!

- آه.. نـاس عايشـة في وهـم لقمـة العيـش، ونـاس عايشـة في وهـم الفهلـوة وتقليـب المصالـح، نـاس عايشـة في وهـم السـفر ورابطـة بيـه حياتها، نـاس واهمـة نفسـها إنهـا صالحـة ومحترمـة وجواهـم مليـون شـيطان.. ده غـير وهـم الخـوف الـلي دايمًـا عايشـين بيـه.. خوفهـم مـن بكـرة.. خوفهـم مـن بعـض.. خوفهـم مـن الـ... مـن السـلطة.. قـول كلمـة حكومـة كـده في أي أوتوبيـس مليـان نـاس وشـوف نظـرة الخـوف في عينيهـم.. حـس بالوهـم بيـاكل حياتهـم حتـة بحتـة.

- أنا.. أنا...

- إنـت مـش عـارف تقـول إيـه.. حتـى إنـت مـالي حياتـك أوهـام.. واهـم نفسـك إنـك بتحـب الـلي حواليـك، وفي أول فرصـة ممكـن تـدوس عليهـم

عشـان تحقـق أحلامـك.. اسـمك كـمال وعايـش في وهـم الكـمال.. معايـا تقـدر تحقـق أحلامـك.. حبيبتـك الـلي سـابتك يمكـن ترجـع.. يمكـن تكـون أشـهر صحفـي في مـصر.. غنـي.. مشـهور.

تركته وأنا أحاول السيطرة على أفكاري.

- وأسيب حياتي والناس وأعيش في وهم؟!

- إنـت بتقايـض وهـم بحلـم.. معايـا مفيـش خـوف مـن بكـرة، مفيـش فقـر.. معايـا هتكـون حـر.. وكل ده ببسـاطة بـدون مقابـل.. فـري.. عايـز تخـرج اتفضـل اخـرج محـدش هيلمسـك، اخـرج وعيـش الـذل واليـأس، عيـش في وهـم معمولـك.. بـس اوعـى تفتكـر إني لوحـدي، أنـا كتـير.. كتـير أوي في كل حتـة وفي كل مـكان.

- بس...

- مـن غـير بـس.. فرصـة مبتجيـش في العمـر غـير مـرة واحـدة.. يـا تعيـش في الحلـم.. يـا تمـوت في الحقيقة.

أربكنـي منطقـه.. ألم آتِ إلى هنـا محـاولاً إبهـار رئيـس التحريـر؟ ألم يكـن كل ذلـك في محاولـة منـي لتغيـير حيـاتي؟ هـل حيـاتي تعنـي لي الكثـير فعـلاً لـأتمسـك بهـا؟ ألم أحـاول دومًـا التخلـص منهـا واسـتبدالها؟ يمـد يـده إليّ مصافحًـا فـأنظـر إليـه في ذهـول.. سـاد الصمـت للحظـات بينـما يـده الممـدودة تقـف في الهـواء تنتظـر ردي.

- اصحي يا حارة وفوقي.. اصحوا.

أخرجنـي الصـوت مـن حالتـي، كأن الكـون يحـاول إعـادتي عـما أفكـر فيـه.

- اصحوا يا نايمين.

نظـرت إلى المجـذوب الـذي ظهـر مـن بعيـد، ورفعـت رأسي إلى شـحاتة متخـذًا قـراري.

- لا يا شحاتة.. أنا مش هعيش في الوهم.

تركتـه بينـما الذهـول والغضـب يتراقصـان عـلى ملامحـه، واتجهـت إلى المجـذوب لأمـشي وراءه وأردد معـه:

- اصحي يا حارة وفوقي.

- اصحي يا حارة وفوقي.

- ده بكرة ييجي اليوم شمس النهار هتبان.

- ده بكرة ييجي اليوم شمس النهار هتبان.

سمعت شحاتة يصرخ في غضب من ورائي:

- هـي دى الحقيقـه بتاعتـك؟! هتمـشي في الشـوارع تكلـم نـاس عمرهـا مـا هتسـمعك! هتحـوّل نفسـك لمجنـون؟ اتكلـم.. عـلّي صوتـك كـمان وكـمان.. سـمّع الدنيـا كلهـا.. ولا حـد هيسـمعك.. ولا حـد هيتحـرك خطـوة.. عـارف ليـه؟ عشـان إنـت ولا حاجـة.. نملـة.. مجـرد نملـة.

تجاهلته وأنا أرفع صوتي وراء المجذوب:

- اصحوا.. فوقوا.

- اصحوا يا نايمين.

- ولا ناموا.

نظرت إلى شحاتة بعينين دامعتين:

- لأ.. اوعوا تناموا.

هلاوس

ملحوظة: هذه القصة لا تعبر عن أي شيء، ولا أحاول فيها أن أعبث بأي نوع من المعتقدات الدينية أو الأشكال السياسية، وإنما هو نوع من أنواع العبث الصريح الذي لا أقصد به أي شيء على الإطلاق.. قد يكون نوعًا من أنواع إطلاق العنان للخيال، أو الخبال أن أردت قول ذلك.. قد يكون نوعًا ما من أنواع الهلوسة.

ملحوظه أخرى: لا بد أنك تتحرق شوقًا للقراءة الآن، مما يثبت نظرية أن الدعاية الجيدة قد تجعل من أي شيء مُهمًا، حتى لو كانت القصة تتكلم عن دورة حياة دودة الأميبا.

يقال إن أي إنسان على ظهر البسيطة لا يربطه أكثر من ستة أشخاص بأي إنسان آخر، ولكن المهم أن تعرف من هم الأشخاص الستة.

* * *

ستة

"لا بد أن أكتب قصة»، هكذا حدثت نفسي محاولاً أن أجد فكرة مختلفة.. أحاول أن أجوب بحور الخيال.. نعم يجب أن أكتب قصة جديدة.. أفكر.. أعتصر مخي.. إنها ليلة رأس السنة والجو البارد يرمي بالقشعريرة على عمودي الفقري.. جوي المحبب للكتابة.. حسنًا سأحاول الآن ولنرى كيف ستمضي القصة.

اندفع مصطفى كالمجنون في الشارع محاولاً اللحاق بموعده متمنيًا أن يتذكر أين ركن سيارته تلك المرة.. كم كان شكله مرهقًا بعينيه المحمرتين جرّاء السهر وتلك الجالونات من القهوة في جوفه لكي يحضّر لذلك الاجتماع.. ينظر إلى يمينه وإلى يساره، حين رآها تخرج من ذلك المحل.. جميلة متألقة كالشمس في عينيه.

مهلاً مهلاً.. لماذا دائمًا يجب أن تكون جميلة؟ قلتها لنفسي.. لماذا دائمًا ما تكون بطلة القصة بارعة الجمال؟ حسنًا.

حينها رأى تلك الفتاة تخرج من ذلك المحل في ركن الشارع.. فتاة عادية كالكثيرات، ولكن لمجرد أن وقعت عليها عيناه وجد أن قلبه...

لا.. لا.. قلتها لنفسي مرة أخرى.. لماذا دائمًا ما يرى البطل البطلة وليس العكس؟ لماذا تبدأ قصص الحب من طرف الرجل وليس العكس؟ أنا أبحث عن الاختلاف.

اندفعت زهرة في الشوارع كالمجنونة محاولة اللحاق بموعدها مع زملائها في العمل، للقيام برحلة التسوق الشهرية كعادة النساء، داعية أن تتذكر أين ركنت سيارتها، لأنها كالعادة تنسى دائمًا. كم كان منظرها

مرهقًا وهي تعبر ذلك الشارع من جراء السهر وجالونات النسكافيه (لا بد أن يكون نسكافيهًا) وهي تتحدث مع صديقتها في التليفون! تنظر يمينًا وتنظر يسارًا لتراه، ذلك الشاب الرياضي ممشوق القوام يخرج من ذلك المحل يحمل كيسًا ضخمًا يئن من حمله.. ينظر إلى من حوله في غضب.. توقفت مشدوهة للحظات تتساءل في سرها لم لا تكلمه! إنها واثقة أنها رأته من قبل.. تراه ينظر إلى اليمين وإلى اليسار متأهبًا لعبور الشارع.. الكيس يتمايل بين يديه منذرًا بكارثة، ولكنه لا ينتبه.. تصرخ بأعلى صوتها أن احترس.. ينظر إلى مصدر الصوت للحظة.. لحظة وحيدة ظهرت فيها تلك السيارة المسرعة بصرير عجلاتها يسد الآذان.. تتآكل الأمتار في سرعة بينه وبين السيارة التي لا يفلح قائدها في إيقافها أو تفاديه.. تصرخ زهرة بأعلى صوت حينما رماه الارتطام لمترين في الهواء، ليقع على رأسه بصوت مسموع.. أحست أن الدنيا قد سكنت من كل الأصوات إلا صوت أنينه.. تجري وسط أناس لا تراهم بأعين دامعة.. سائق السيارة يتوقف متوقعًا الكارثة القادمة.. تجري زهرة حتى تصل إليه ليسطع فجأة ذلك الضوء المبهر في المكان ويختفي مصطفى من وسط الشارع إلى الأبد، لتقف زهرة متسائلة وسط الناس أين ذهب!

* * *

خمسة

اندفع ذلك الفارس الضخم المدجج بالدروع رافعًا سيفه العملاق في الهواء ينهب الأرض نهبًا متجهًا إلى...

إلى أين يتجه ذلك الفارس؟ تساءلت.. لا بد أن يتجه إلى شيء.. هل أجعله يحارب جيشًا من الأشداء؟ لا، تقليدي جدًا.. إذن فهو جيش من مخلوقات فضائية.. لا مفرط جدًا في الخيال.. ثم ما الذي جاء بفارس إلى قصتي من الأساس؟! نعم وجدتها.

اندفع ذلك الفارس الضخم المدجج بالدروع يرتدي السواد رافعًا سيفه العملاق المصنوع من الفضة الخالصة وسط ذلك القطيع من الذئاب الضخمة.. أضخم ذئاب قد تراها في حياتك.. يلوّح بسيفه ذات اليمين فيصرع اثنين منهم.. يميل فيتفادى انقضاضة من أضخمهم.. ليغرس سيفه في رقبته بعدها بثوانٍ.. يقتل اثنين.. خمسة.. ولكنهم يتزايدون وينقضّون عليه من كل الجهات.. يتمسك بدرعه الثقيل ويضرب به أحد الذئاب في وجهه ليخر صريعًا في الحال.. أحد الذئاب يقتنص قدمه وآخر ينقض على ظهره فاتحًا فمه عن آخره.. صيحة ظفر تخرج من كبير الذئاب على هيئة زمجرة آمرة.. يحاول الفارس التملّص من مهاجميه، ولكن ينقض على ظهره ذئب آخر ليشارك زميله.. يتشمم الذئب رقبة الفارس متأهبًا لأن يقضم من لحمها.. زمجرة أخرى من ملك القطيع يأمرهم أن ينهوا المهمة.. الذئب ينبش أسنانه في رقبة الفارس لكنه لا يجدها، لأن الفارس اختفى من وسطهم وكأنه لم يكن موجودًا من الأساس.. يبحث الذئاب من حولهم في ذهول حيواني، ليطلق زعيمهم زمجرة عظيمة وكأنها صرخة غاضبة.

* * *

أربعة

أين توقفت؟ نعم لقد اختفى الفارس.. ثم ماذا؟ قصة غريبة جدًا تلك القصة.. لحظه لأقضم من تلك الشطيرة حتى أكمل.

"عبد الحفيييييييظ!" صرخت تلك المرأة البدينة بالاسم في غضب شديد، لتندفع من بعدها إلى صالة منزلها ممسكة بتلك الملعقة الخشبية الضخمة، لتلوح بها في وجه ذلك الرجل الممتقع شديد النحافة الذي يجلس أمام التلفاز يقرأ الجريدة في تمعّن، وكأنما لا يسمع ما يدور بالداخل.

- يجب أن ترى حلاً في ابنتك هذه.

تساءل في داخله.. ابنته؟ إنه لا يتذكر أن له ابنة.. الحقيقه إنه لا يتذكر أي شيء قبل تلك اللحظة.. من هو؟ لا بد أن اسمه عبد الحفيظ كما يقولون.. ثم من تلك المرأة البدينة؟

- لماذا لا ترد عليّ؟ هل انخرست أخيرًا؟

نعم.. من هو عبد الحفيظ؟ سألت نفسي مجددًا.. ليكن موظف حكومة بالأرشيف.. يقضي الوقت في قراءة الجريدة دائمًا، ولتفقد زوجته بعض الكيلوجرامات أيضًا.

نعم، إنه الآن يتذكر.. إنه موظف بالأرشيف يحب قراءة الجريدة.

- ألم تكوني بدينة عن ذلك؟

سأل امرأته في اندهاش.

- ستصيبني بالجنون أيها الرجل.. نحن نتكلم في ابنتك المجنونة.

- ولكنك كنت بدينة، وكأنك.. وكأنك فقدتِ عشرة كيلوات في لحظة.

- لقد جننت حتمًا مثل ابنتك.. عائلة المخابيل هي أنتم.

قالتها لتدخل إلى المطبخ مرة أخرى وهي تسب وتلعن، ولكن عبد الحفيظ يشعر أن هناك شيئًا مفقودًا.. يشعر أنه لا يفهم شيئًا.

"هل لا تفهم شيئًا؟" قالها ذلك الرجل ذو الصوت الغليظ في التلفاز، ليعقب من بعدها "إن كنت لا تفهم شيئًا من حياتك اتصل بنا على 0900999 ونحن سنزوّدك بالحل.. اتصل الآنننننن».

يبدو أن عندهم الحل، وعبد الحفيظ لم يحاول أن يفكر في شيء من قبل هكذا؛ نظر إلى الهاتف الأسود الصامت في ركن الحجرة ليتحرك من مكانه المفضل في غرفة المعيشة.. من أين جاءت تلك المياه على الأرضية.. لا بد أن زوجته كانت تنظف منذ قليل.. سأل نفسه ما اسمها، لينفض عن نفسه السؤال، مقتنعًا أن أصحاب الإعلان سيدلونه كما قالوا.. لكن لو كان أكثر حذرًا ليلبس خُفًا أو يرى ذلك السلك الملقى بإهمال إلى جانب التليفون.. لو كانت خطوته أكبر من

ذلك.. لو كان فقط أكثر حرصًا وأدق نظرًا، ولكنه للأسف لم يكن.. داس على السلك لتسري في جسده الكهرباء في لحظات.. انتفض جسد عبد الحفيظ انتفاضات متتالية ليطلق صرخة أخيرة، وعندما خرجت امرأته وابنته إلى غرفة المعيشة لم تجدا له أثرًا، وكأنما اختفى أو تبخر من مكانه.. وانطلق ذلك الصوت في التلفاز مرة أخرى.

"هل لا تفهم شيئًا؟! اتصل الآن».

* * *

ثلاثة

هل غفوت؟ ربما غفوت للحظات.. ربما كانت دقائق أو ساعات.. لا يهم، ربما لأن الأوقات تشبه بعضها.. أيام أم ساعات لا فارق.. نعم قد كنت أكتب قصة.. أين توقفنا؟

اندفع ذلك الذئب الوحيد يجري لاهثًا يقطع الأمتار في سرعة، ومن ورائه اندفع ذلك القطيع من الذئاب الذي يتحرك ككتلة واحدة وفي عقولهم جميعًا هدف واحد.. صوت تلك الخطوات.. لهاث.. وفكرة واحدة اعتملت في أعماق الكل.. لا بد ألا نتركه يهرب.

لا انتظر.. قلتها لنفسي.. لا بد من عنصر نسائي.. ثم ما الفكره من الذئاب؟ نعم لنجعلهم مذؤوبين.. لتكن مذؤوبة.. حسنًا لنكمل.

تندفع تلك المذؤوبة المتوحدة يتبعها القطيع فوق الثلوج الروسية القاسية.. خطوة تتلوها الأخرى.. ولكن من أين جاء ذلك الفرع.. تتعثر فيه لتطير مترين في الهواء، لتصطدم بالأرض ويلحقها باقي القطيع في لحظات.. صوت الزمجرة يصم الآذان ويملأ الهواء لتقاطعه زمجرة أعلى وتخرج من وسطهم تلك الذئبة التي تتمايل في دلال وتنظر في حقد ذات اليمين واليسار.. خطوة تتلوها خطوة لتتحول آثارها فجأة إلى آثار آدمية وتقف منتصبة على هيئة أنثى جميلة و... (تخيل أي فتاة كليبات وستفي بالغرض). تقف أمام الذئبة الهاربة قائلة:

- لقد خنتِ العشيرة يا هيلجا.

تقف من أمامها هيلجا في هيئتها البشرية قائلة:

- بل أنت الخائنة أيتها الـ...

اندفعت الذئبة شبيهة فتيات الكليبات كأي ذئبة تحترم نفسها:

- نعم نعم يا حبيبتي! أنا الأحق منك بالملك أيتها العجوز المتهالكة.. منذ متى لم تنظري إلى فرائك في المرآة؟

- لقد انتزعتِ المُلك أنت وهؤلاء الخونة، وأقسم أنني سأنتقم منكم أجمعين.

- حتى في آخر لحظاتك تظنين أنك ستنتصرين يا هيلجا! حمقاء كالعادة.

ثم كنابليون بونابرت قالت:

- اقتلوهاااااااا.

للحظات توقف الجميع صامتين لترتفع زمجراتهم تدريجيًا.. انطلقت أميرة الذئاب الجديدة متحولة إلى صورتها الذئبية رافعة عقيرتها لتنقض انقضاضتها الأخيرة.. ولكن قبل أن تصل أسنانها إلى عنق هيلجا كانت هيلجا اختفت وكأنها لم تكن موجودة من الأساس.

اندفعت أميرة الذئاب قائلة بأعلى صوت:

أين هي؟ أين هي؟ هل يفهم أحدكم شيئًا؟

* * *

اثنان

كم هي غريبة الحياة، هكذا حدّث نفسه متأملاً علبة الأقراص بين يديه.. هل يعقل أن يكون حل كل المشاكل في تلك الحفنة من الأقراص الصغيرة؟ هكذا تساءل في تهكم.. لا بد أن يقتل نفسه من أجل...

نعم.. من أجل ماذا؟ لتكن قصة حب فاشلة كالعادة.. فتاة اسمها أمنية أو بسمة.

لا بـد أن يقتـل نفسـه مـن أجلهـا.. تركتـه يتعـذب ورحلـت.. أمنيـة أو بسـمة رحلـت بعدمـا غرسـت في قلبـه ذاك الخنجـر المسـموم بكلماتهـا القاتلـة البطيئـة.. لا بـد أن يرحـل، فهـو لـن يتحمـل الحيـاة مـن دونهـا.. يتأمـل زجاجـة الأقـراص في هـدوء وعـلى شـفتيه ابتسـامة أسى وسـخرية.. يفتـح الزجاجـة.. يلـقي بحفنـة مـن الأقـراص بـين يديـه.. لا بـد أن يرحـل.. كانـت عيناهـا... الغريـب أنـه لا يتذكـر عينيهـا، لا يتذكـر أي شيء مـن ملامحهـا عـلى الإطـلاق.. تسـاءل في سرّه عـما يعنيـه هـذا، ولكنـه نفضـه عـن رأسـه في سرعـة.. المهـم أنـه حزيـن وكفـى.. المهـم أن يرحـل ويـترك لهـا الحيـاة مـع إحساسـها بالذنـب.. نعـم سـيكون هـذا هـو انتقامـه الأبـدي.. لا بـد أن صورتهـا في جيوبـه.. يبحـث ويبحـث ليجـد تلـك الورقـة المطويّـة بعنايـة.. نعـم جميلـة.. ينظـر إلى صورتهـا مـع نفـس عميـق ليرفـع بالحبـوب إلى فمـه محـاولاً أن تشـمل عينـاه تفاصيـل صورتهـا.. محـاولاً أن تكـون صورتهـا هـي آخـر مـا يـراه إلى الأبـد.. مليمـترات تفصـل بـين يـده وفمـه.. مليمـترات تفصلـه عـن الحيـاة، لكـن قبـل أن تصـل يـده بمحتواهـا إلى داخـل فمـه اختفـى مـن مكانـه وكأنمـا لم يكـن موجـودًا مـن قبـل لترتطـم بـالأرض تلـك الأقـراص وتقـع بجانبهـا صورتهـا، وصـدى جملـة تـرددت في خلايـا مخـه مـا زال يمـلأ المـكان.. أحبـك يـا محمـود.

* * *

واحد

تحـرك ذلـك الرجـل ذو المعطـف الطويـل في ذلـك الـرواق المظلـم بتـؤدة، وبتلـك المشـية الواثقـة التـي تقـول إن صاحبهـا واثـق مـن نفسـه ولا يجـب أن تتهـور معـه.. يمـشي مدنـدًا بذلـك اللحـن القديـم، وصـوت خطواتـه يصنـع إيقاعًـا رتيبًـا متأمـلاً ذلـك الظـل الضخـم لذلـك الرجـل الـذي يقـف في آخـر الـرواق، معطيًـا ظهـره للنـور راسـمًا ذلـك الظـل.. بصـوت رخيـم تكلـم:

- لقد حضرت في موعدك كالعادة يا عدنان.

- أنت تعرفني، أنا لا أحب أن أخلف مواعيدي أو قواعدي.

- رجعنا إلى ذلك الهراء عن القواعد مجددًا.

- لنتكلم في العمل ولنطرح الترهات جانبًا.

- نعم نعم.. العمل كالعادة.

امتدت يده بمظروف ضخم ليستلمه منه عدنان في هدوء ورزانة وثبات.. ليفضّه من بعدها مخرجًا تلك الورقة، ينظر فيها بعناية وبتمعن، ثم دهشة، ثم غضب، ليصرخ:

- أتمزح؟! إنها صورتي وبياناتي!

وعندما نظر إلى يد الرجل الواقف أمامه رأى ذلك المسدس كبير الحجم وتلك الفوهة موجهة إلى ناحيته:

- اعذرني لا شيء شخصي، إنه العمل كالعادة.. أنت تعلم كيف هم الكبار، إذا أرادوك ميتًا فأنت ميت.

مع آخر كلماته ضغطت يده على الزناد لتنطلق رصاصته التي أحكم تصويبها جيدًا، لترتطم بالحائط المقابل وتخطئ هدفها، لأن هدفها اختفى في لحظة ولم يعد هناك.. انتقل معهم إلى هناك.

* * *

اللقاء

هل غفوت مرة أخرى؟ لا بد أنني متعب جدًا.. لا بد أن ساعات قد مرت وأنا في ذلك الوضع.. ماذا أكتب؟ نعم إنها تلك القصة أو محاولة القصة كما أظن.. أين توقفنا؟ نعم لقد اختفى هؤلاء الأشخاص وهكذا تكونت الشخصيات.. لندعهم يلتقون.

هل مت؟ انطلق ذلك السؤال وتردد صداه في عقول ستة أشخاص ترامت أجسادهم في أنحاء الغرفة.. لا بد أنني قد مت.. قالها الفارس لنفسه مكملاً:

- تبًا لهؤلاء الذئاب! كيف لهم أن يقتلوني؟ هؤلاء الحمقى لا يعلمون

مـن قتلـوا، ولكـن لمَ يبـدو المـوت بذلـك الـدفء؟ لا بـد أنهـا الجنـة التـي وصفهـا لي الكاهـن.

انقلـب الفـارس عـلى ظهـره فاتحًـا عينيـه، لـيرى تلـك الغرفـة الفارغـة التـي ترامـت فيهـا أجسـاد الخمسـة الآخـرون.

- لمَ يشاركني هؤلاء موتي؟ ثم من هؤلاء أساسًا؟

يقـوم مـن مكانـه في خفـة تعارضـت مـع وزنـه ووزن دروعـه، ليقـترب مـن أقربهـم لـه الـذي لم يكـن سـوى عبـد الحفيـظ، ويهـزه في عصبيـة:

- استيقظ أيها الرجل النحيل.. استيقظ.

تمطى عبد الحفيظ في استرخاء قائلاً:

- اتركيني قليلاً، فاليوم هو الجمعة.

- استيقظ أيها الغريب.

فتح عبد الحفيظ عينيه في عصبية ليرى وجه الفارس، فشهق صائحًا:

- خذ كل ما تريد ولا تقتلني.. خذ أي شيء.

- اهدأ، أنا لا أريد قتلك.. من أنت؟

طفـق عبـد الحفيـظ في الصيـاح كسرينـة عربـات الشرطـة بصـوت يوقـظ المـوتى، ليفيـق الجميـع متلفتـين حولهـم في عصبيـة واندهـاش، وطفـق مصطفـى ومحمـود يحـاولان تهدئـة عبـد الحفيـظ، مـع الكثـير مـن "صـلى عـلى النبـي يـا حـاج"، وبعـد أن هـدأ عبـد الحفيـظ بعدمـا أعطـاه أحدهـم سـيجارة "التدخـين ضـار جـدًا بالصحـة» وبـدأ ينفـث الدخـان في اسـتمتاع ليسـأله الفـارس، وهـو يوشـك عـلى أن يقتـل أحدهـم:

- من أنت؟ ومن أنتم جميعًا؟ لم تشاركوني الجنة؟

"لسـت في الجنـة، لأننـا لم نمـت أيهـا العمـلاق» التفـت الجميـع إلى مصدر الصـوت، ليجـدوا هيلجـا تقـوم مـن عـلى الأرض متمايلـة كـ... كالذئـاب طبعًـا، لينفتـح فـم عبـد الحفيـظ في بلاهـة وتصـدر صافـرة إعجـاب مـن الفـارس ويقـترب منهـا:

- ومـن أنـتِ أيتهـا الجميلـة؟ إن لم أكـن في الجنـة فمـن أيـن جئـتِ أيتهـا الحورية؟

- أنـا هيلجـا، ووفّـر عـلى نفسـك هـراء الحوريـات هـذا.. أنـا أفطـر بخمسـة مـن عينتـك.

ابتسم الفارس في استهزاء، وبطريقة جيمس بوند قال:

- لا بد أنك لا تعرفيني جيدًا.. ولكن أنا أضمن لك أيتها الحسناء.

"هـل تريـدون أن نخـلي الغرفـة ونعـزف لكـم بعـض الموسـيقى الهادئة؟" قالهـا عدنـان في نفـاد صـبر لأنـه لم يتحمـل مـا يحـدث، واسـتطرد: "لا بـد أن نفهـم أيـن نحـن أولاً".

ردت هيلجا في غيظ:

- لم نمت، وهذا ما أنا متأكدة منه.

سبل الفارس عينيه وقال في هيام:

- ولمَ يا أميرتي أنتِ متأكدة أننا لسنا في الجنة؟

ردت عليه:

- صدقني أنا أعلم الموت جيدًا وأعلم أكثر أنني لن أرى الجنة.

بدأ عدنان بالتحرك وهو يعدد على أصابعه:

- إذن فنحن أحياء.. في مكان لا نعرفه.. ولا يعرف أحدنا الآخر.

ردد عبد الحفيظ في هلع:

- إذن فقد اختطفونا.. لا.. لا أريد أن أموت مخطوفًا.

- اهدأ فلن يموت أحد.

كانـت هـذه مـن محمـود الـذي بـدا كأنـه يفيـق مـن شرود إلى شرود.. لتتكلـم هيلجـا قائلـة:

- لكـن إذا كنـا مخطوفـين فـلا بـد أن يكـون بيننـا صلـة معينـة، وإلا مـا الفائـدة! حسـنًا مـا أسـماؤكم؟

بـدؤوا جميعًـا يذكـرون أسـماءهم، حتـى جـاء دور الفـارس ليفكـر لفـترة

ثـم يقـول:

- العجيـب أننـي لا أعـرف.. شيء عجيـب لا أفهمـه ولكنـي لا أعـرف فعـلاً.. شيء غريـب، لا بـد أننـي بـدأت أشـيخ فعـلاً.

ردت هيلجا:

- غريـب فعـلاً ولكـن لا يهـم الآن.. يبـدو أننـا لسـنا مـن نفـس البلـد، وقـد نكـون مـن أزمنـة مختلفـة أيضًـا كـما أرى مـن الملابـس وتنوعهـا.

رد عدنان مسرعًا:

- لكننا جميعًا نتكلم العربية الفصحى.

فكرت هيلجا للحظة:

- غريـب هـذا.. الآن أدرك هـذا فقـط، فأنـا لا أتذكـر أننـي مـن منطقـة عربيـة، ويبـدو أن الفـارس يشـاركني في ذلـك.. لكـن نقطـة جيـدة، وأيضـا كـما أرى فـإن ثلاثـه منـا مدنيـون بـلا قـوة تقريبًـا، وثلاثـة يعيشـون الخطـر.

رد عدنان في اندهاش:

- ومن أين عرفتِ أيتها العبقرية؟

- لا تسـتهن بي يـا عزيـزي، فأنـا أعـرف الخطـر عندمـا أراه.. لكـن لحظـة، هـل مـر أحدكـم بتجربـة معينـة قبـل أن يـأتي إلى هنـا؟

رد الفارس:

- كنت سأموت.

ورد عبد الحفيظ:

- وأنا كنت سأصعق بالكهرباء.

ليسأله الفارس:

- وما هي الكهرباء؟

تحيّر عبد الحفيظ للحظة ثم قال:

- الكهربـاء هـي الكهربـاء.. لحـظة، لِمَ الغرفـة مضيئـه دون أي مصـدر إضـاءة؟

تكلمت هيلجا مرة أخرى:

- وأنا مثلكم كنت سأقتل غدرًا.

استلّ الفارس سيفه قائلاً في صوت جهوري:

- من ذا الذي يقدر أن يؤذيكِ وأنا معك؟

صاح عدنان في نفاد صبر:

- اهدأ يا سيدي قليلاً ودعنا نفكر.. إذن فكلنا اقتربنا من الموت لنجد أنفسنا هنا فجأة، ولكن هذا لا يصلح كرابط.. من قال إننا مختطفون من الأساس؟

أرهفت هيلجا سمعها قائلة:

- أسمع صوت خطوات بالخارج.

حبس الجميع أنفاسهم وهم يستمعون لصوت الخطوات بالخارج تقترب، وتقترب أكثر وأكثر، وتوتر الفارس يزيد ويزيد، ليصيح فجأة بهستيريا:

- لا أطيق هذا الصوت.. إن كنت رجلاً أظهر نفسك الآن.

ليخرج سيفه مغمدًا إياه في جسد هيلجا بقوة.. بقسوة، ونظرات الذهول ملأت المكان.. كان... آن...

ما هذا الهراء؟ لم يقتل الفارس هيلجا أساسًا؟ لا بد أنني جننت حتمًا.. كيف لفارس أن يفقد أعصابه بتلك السهولة؟ ثم أنا بدأت أحب هيلجا فعلاً فلم أقتلها؟ دائمًا المرأة أذكى.. لا.. لا.. لأمسح ذلك الجزء الأخير.

صاح عدنان في نفاد صبر:

- اهدأ يا سيدي قليلاً ودعنا نفكر.. إذن فكلنا اقتربنا من الموت لنجد أنفسنا هنا فجأة، ولكن هذا لا يصلح كرابط.. من قال إننا مختطفون من الأساس؟

أرهفت هيلجا سمعها قائلة:

- أسمع صوت خطوات بالخارج.

صاح عبد الحفيظ:

- أحس أنني رأيت ذلك المشهد من قبل.

مال عليه محمود قائلاً:

- ديجا فو تقصد؟

وبدأت الخطوات تقترب وتقترب، ومعها زاد توتر الفارس، الذي بدأ عبد الحفيظ في مراقبته وهو يكلم نفسه.

- أكاد أقسم أنني رأيت ذلك من قبل.. لا.. لا بد من التحرك.

وعندها صاح الفارس:

- لا أنا لا أطيق ذاك الصوت.. إن كنت رجلاً أظهر نفسك.

امتدت يده على سيفه ليجد تلك اليد القوية تمسك بيده، والتي لم تكن سوى يد عدنان، نظر إليه نظرة معناها الكثير، من تلك النظرات التي يجيد الخطيرون صنعها.. شخصت أنظار الجميع ناحية الباب لثوانٍ بدت كدهور، لينفتح الباب عن وجه عجوز أشيب منحني الظهر، ليتنفس الجميع الصعداء ويبدأ عبد الحفيظ في الكلام.

- سلام عليكم يا حاج.. هل تعلم هل نحن مخطوفون أم لا؟

رد الرجل العجوز في هدوء:

- لا لستم مخطوفين. لم تقول هذا يا ولدي؟

رد الفارس:

- نحن أغراب أيها العجوز.. هل تدلنا على أقرب مدينة؟ وسنكافئك بسخاء.

ضحك العجوز من كلامه، ورد:

- لا تهمني المكافأة.. المدينة على الجانب الآخر من الغابة، لكن إن دخلتم الغابة فاعلموا أنها ليست بالتجربة المحببة.

تكلم مصطفى:

- ولمَ؟ ما الذي يوجد هناك في الغابة؟

ملأ الغموض وجه العجوز، والتمعت في عينيه نظرة من تلك النظرات التي يجيد صنعها العجائز، وقال:

- الكثير.

أشهر الفارس سيفه وتقدم الجميع، قائلاً:

- لنذهب يا أميرتي، فأنا سأحميكم.

تمتم عدنان:

- احمِ نفسك أولاً أيها المغفل.

في حين فكّر محمود:

- أو نموت لا يهم.. فقد تركتني ولا تصلح الدنيا من دونها.

في حين فكر مصطفى أن يفكر في شيء، ولكنه لم يجد ما يقول، فانضم للجمع.

أخرج عبد الحفيظ علبة سجائره "التدخين ضار جدًا بالصحة» واقترب من العجوز قائلاً:

- أشكرك يا حاج.. سيجارة يا حاج؟

* * *

القرية

كم كان منظرهم يوحي بالبطولة! ثلاثة في المقدمة يمشون فاردين صدورهم مواجهين المخاطر، وثلاثة آخرون يمشون منكمشين ملتصقين ببعضهم في الخلف، يتوسطهم الرجل العجوز.

كم واجهتهم من مخاطر! وكم من الأهوال رأوها! لكن ما هي الأهوال؟ لا يهم.. وحش، سفاح مجنون، قبيلة من آكلي لحوم البشر، عفاريت زرق.. سأعود لأكتب الأهوال بعد ذلك.. المهم أنهم خائفون.. خائفون بشدة.

أشعل عبد الحفيظ سيجارته الخامسة والعشرين قائلاً في همس:

- أنا خائف بشدة.

ربت محمود على كتفه قائلاً:

- لا تخف.. بل تمنَ الموت بسرعة.

لكزه مصطفى قائلاً:

- أنت لا تجعل الموضوع أسهل بكلامك هذا، اخرس قليلاً.. لحظة واحدة.. أين العجوز؟

تلفتوا حولهم ليقول محمود:

- لقد كان هنا منذ لحظات.. أين ذهب؟

صاح عبد الحفيظ قائلاً:

- يا حاج.. أين أنت؟

في نفس الوقت كان الفارس يقبض على سيفه بكلتا يديه متكئًا على الأرض مسبلاً عينيه في هيام، قائلاً لهيلجا:

- إذا خرجنا من هذا أحياء، هل تقبلين دعوتي على العشاء؟

أمسكت تلك اليد القوية بساق عدنان ليفزع ويخرج سلاحه، مستعدًا للتصويب، ليطالعه وجه العجوز مليئًا بالدماء.

- اهربوا الآن.. اهربوا أيها الأغبياء.. القرية من ذلك الاتجاه.

بدا كأنه سيموت للحظة، لكن وكأنما تذكر شيئًا؛ قال بأنفاس لاهثة متقطعة :

- ان.. ك.. ذ.. صه...

قرب عدنان أذنه منه ليسمع أكثر، لكنه لم يسمع أكثر من:

- ان.. ك.. ذ.. صه...

ليلفظ العجوز أنفاسه ويصرخ عدنان في ألم.

- لاااااااااااااااا.

لحظة واحدة.. عدنان لا يصرخ أبدًا، فهو قاتل محترف.. حسناً.

ليلفظ العجوز أنفاسه وينظر إليه عدنان في أسى ويمط شفتيه،

مناديًـا الجميـع:

- لقد مات العجوز.. لنذهب من ذلك الاتجاه (هكذا أفضل).

* * *

كانـت القريـة كالحلـم.. أنـاس ترقـص وأنـاس تضحـك، والحسـناوات يملأن المـكان، ليدخلهـا أبطالنـا مملوئـين بالرهبـة مـن جـراء مـا رأوا، ليحـل محلهـا رويـدًا رويـدًا الفـرح بإنقاذهـم مـما كانـوا فيـه.. اندمـج الجميـع في الأنغـام التـي مـلأت المـكان، وسـأل عبـد الحفيـظ مـن حولـه في بـراءة:

- مولد سيدي من هذا؟

وجـد الجميـع ترحابًـا كبـيرًا مـن أهـل البلـدة الذيـن بـدوا في غايـة السـعادة، وكأنهـم لم يـروا أغرابًـا مـن قبـل، بـل إن أحدهـم عـرض أن يـزوّج بناتـه الثلاثـة لهـم، وبينـما جلـس الجميـع تحيـط بهـم الحسـناوات يشربـون ذلـك المـشروب الغريـب المـذاق في الكـؤوس المذهبـة، قـام الفـارس وتقـدم مـن هيلجـا قائـلاً:

- أتسمحين لي بتلك الرقصة يا آنسة هيلجا؟

ابتسمت هيلجا لتكشف عن نابيها قائلة:

- لم تريدني بذلك الشكل؟ أنا لست من النوع اللطيف.

- ومن قال إنني أحب المرأة اللطيفة؟

- إذن ماذا تريد؟

- أتتزوجينني؟

امتلأ وجه هيلجا بحمرة الخجل، وأعطته يدها قائلة:

- هيا لنذهب من هنا.

وأشارت إلى الباقين قائلة:

- سنذهب من هنا يا رفاق، فلدينا وحوش لنصطادها.

ثم اتسعت ابتسامتها وغمزت بعينيها.

- سنتزوج أنا وفارسي.. أنتم معزومون على الفرح طبعًا.

غابا عن الأنظار، ليقول عبد الحفيظ بفم مليء بالطعام:

- قصة حب حقيقية.. نهاية سعيدة فعلاً.

قام عدنان من بعدها قائلاً:

- يبدو أنني أيضًا مضطر إلى الذهاب، فحياة الدعة لا تناسبني، غير أن لديّ انتقامًا أسعى وراءه، كما أن الطعام هنا لا يعجبني.. كوليسترول كثير .

وضع يديه في جيوب معطفه الطويل ورسم نظرة الخطر التي يجيد صنعها على وجهه، قائلاً:

- سنلتقي مجددًا أيها الرفاق إن شاء الله.

اختفى عن الأنظار في لحظات، ليقول عبد الحفيظ بفم مليء بالشراب:

- نهاية سعيدة أخرى يا رفاق، هذا يجد سعادته في انتقامه.. أنا أيضًا وجدت سعادتي.

ثم إشار للحسناء بجانبه.

- ما اسمك أيتها الحسناء؟ إن أم العيال مقارنة بك لا تعتبر أنثى أصلاً.

وبدا كأن هذه القصة انتهت نهاية سعيدة لكل الأطراف، فها هو محمود قد قرر أن ينسى ويتزوج، ومصطفى قرر ألا يشغل باله، وبدأ يُعدّ نفسه ليصبح من كبار المستثمرين.

- لكن مهلاً.

قالها عبد الحفيظ.

- ماذا لو لم نفعل شيئًا؟ ماذا لو أن كل ما فعلناه أن نصبح هنا في النهاية؟ ماذا لو كان الخطر هنا وليس هناك؟

هكذا إذن! هكذا فكرت.. طيب يا عبد الحفيظ! استنى عليّ.. ثم رجعت إلى الفصحى مرة أخرى لأكمل.. بعد كل ما فعلته من أجلك!

حسـنًا.

عندمـا دارت رؤوس الجميـع مـن الطعـام والـشراب ظهـر ذلـك الرجـل يلبـس تلـك الأسـمال قائـلاً:

- أيهـا النـاس.. لقـد تحققـت النبـوءة ودخـل بلدتنـا الأغـراب كـما تنبـأ لنـا العـراف، وحـان وقـت الأضحيـة.

ردد عبد الحفيظ في سكر بلسان ملتوٍ:

- نعم نعم.. الأضحية، وأنا جدع.

أكمل الرجل ذو الأسمال:

- احملوا الأغراب إلى مائدة الأضحية.

ردد عبد الحفيظ:

- نعم احملوا الأغرا... لا.. لا تحملوا الأغراب.

نظـر مـن حولـه فوجـد محمـود لا يعـي مـا حولـه، ووجـد مصطفـى نائمًـا كالطفـل، وبينـما يحملـه الرجـال الأشـداء كالطفـل الصغـير فكّـر في حـسرة.. أيـن الفـارس عندمـا تريـده؟ أيـن هيلجـا القويـة؟ أيـن القاتـل المحـترف عندمـا تحتاجـه بالفعـل؟ بينـما تداعـت صـور عديـدة مـن حياتـه في مخيلتـه وهـم يقيّدونـه إلى مائـدة القرابـين، وتـردد صـدى ذلـك الإعـلان في ثنايـا عقلـه وهـو يـرى نصـل السـكين يلمـع في الهـواء متجهًـا إلى عنقـه.. هـل لا تفهـم شـيئًا مـن حولـك؟

لا.. لا.. ما هذا الهراء؟ لا، أنا لن أكتب هذه القصة الغريبة.

* * *

انطلـق عدنـان في طريقـه، وفجـأة لمـع الحـل في عقلـه بغتـة.. بـدت تلـك العبـارة التـي قالهـا العجـوز واضحـة جليـة في عقلـه، ولكـن مـاذا كان يقصـد.. نعـم إنـه يتذكـر جيـدًا.. لقـد كان يقـول إن كل هـذا قصـة.. فقـط مجـرد قصـة.

الفهرس

ضوء فى آخر النفق.....٥
الكابوس.....٩
الآخر ٢١
دورية.....٣٧
بلياتشو.....٥٥
فارس.....٦٥
بايرومينيا.....٩٣
هاتف منتصف الليل ١١١
سبعة..... ١٢٩
حارة الشيخ شحاتة..... ١٤٧
هلاوس ١٨٥

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ،كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450
أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

وتابعنا :
kayanpublishing kayan.publish
kayanpublishing kayan_publishing